اقبال

الفائز بجائزة وزارة التربية والتعليم

الشاعر الثائر

نجيب الكيلاني

إقبال
الشاعر الثائر

إقبال

الشاعر الثائر

بقلم

نجيب الكيلاني

فاز هذا البحث بجائزة وزارة التربية والتعليم فى مسابقة عام ١٩٥٧ (قسم التراجم والسير)



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أردت أن أسطر هـذه الصفحات الموجزة عن ((الدكتور محمد اقبال)) ، أول من دعا الى تكوين دولة باكستان ؛ لأن فلسفته وشعره ونمط حياته ، وقصة كفاحه ؛ ـ جديرة بأن يقرأها شبابنا ، وخاصة فى هذه الفترة الدقيقة ، التى تجتازها بلادنا الحبيبة !...

ولقد توخيت السهولة والاستطراد التوضيحى ؛ فقد قصدت أن يكثر عـدد قراء ((اقبال)) فى العالم العربى ، وأن يستطيع ذوو الثقافات أن يلموا بسيرة هذا الرجل العظيم !..

وقد يجد القارىء شيئا ـ ليس بالقليل ـ من الدمامة فى الشعر الذى استشهدنا به ، لكن لو أدرك القارىء أن الترجمة من الشعر الى الشعر أمر ليس ميسورا سهلا ، فسيقدر من غير شك هـذه الظروف !..

هـذا ...

وأرجو أن تكون هذه السطور زادا لشبابنا المكافح فى معركته الدامية ضد قوى الاستعمار !..

لقد كان (اقبال) أحد اولئك القلائل ، الذين بعثوا النور فى سماء الشرق من أمثال ((الأفغانى)) و ((محمد بن عبد الوهاب)) وغيرهما ، فرحم الله ((اقبالا)) !..

— ١ —

بين البرهمية والاسلام

« الهند » ... عام ١٨٧٣ م

لقد لوث جمالها ، وشاب جلالها ، وجود الاستعمار الغربى الذى لا يقدس حرية ، ولا يبقى على كرامة ؛ لأن أجواء الحرية والكرامة لا تعطى الفرصة له كى يتنفس ويعيش ، وهما عدوان لدودان للغاصبين ، فلن يستطيع الانجليز أن يسودوا ، الا حيث تهدر كرامة الأحرار ، وتداس عزتهم ! ..

وبالأمس ثارت الهند الابية — أو الدرة العصماء — على تاج الامبراطورية التى أرغموها أن ترتبط به ، لكن قدر لهذه الثورة الاسلامية ، التى قام بها الجيش الهندى أن تقهرها قوى الاستبداد الغاشم ، فلم تصل الى غايتها ، وما أكثر الدماء التى أريقت ، والأرواح التى أزهقت ظلما وعدوانا !..

ومضى على هذه الثورة ما يقرب من عشرين عاما ... لكن ذكراها كانت عالقة بالأذهان وحوادثها الحمراء ما فتئت تجرى على ألسنة الأجيال وتراود خيال الفتية الناشئة ، والشعوب اذا أثقل كاهلها الالم ، وأنهكها الطغيان ، تحلم بماضيها ، وتجتر تاريخها العاطر ، فتشعر بشىء من الراحة ، وبقليل من العزاء ؛ لعل فى ذلك مايدفعها الى الأمام ويبث بين حناياها بذور الامل والرجاء ...

فى هذه الفترة الحرجة المضطربة من تاريخ «الهند» عام ١٨٧٣م بزغ فى سماء الخلود والمجد نجم ساطع لألاء ، أخاذ الرواء ، ألا وهو نجم شاعرنا الفيلسوف ، والحكيم النابه ، والعالم المبرز ، والخطيب المفوه والناثر البليغ ، والمسلم الحق « محمد اقبال » ! ..

ولد شاعرنا العظيم فى بلدة « سيالكوت » — فى اقليم «البنجاب» — حيث الأنهار الجارية التى تنحدر عبر التلال الجميلة ، حاملة فى خريرها وتدافع أمواجها ، قصة الأزل ، وسنة الأبد ، لذلك تفتحت عينا «اقبال» — أول ما تفتحتا — على مناظر بلاده الجميلة ، وطبيعتها الخلابة فوق السفوح والسهول ، وفى السماء والأرض ، ولم يكن يشوه جمال هذه البقاع الا هوان أهلها ، فالخيرات والنعم قد استحوذ عليها غاصب ، ومصادر الارزاق والحياة قد استحوذ عليها وتحكم فيها دخيل ، والاسلام قد صار بين ذويه أطلالا خربة ، وصوامع مهدمة ، وأشباحا لا روح فيها ولا حياة ، ورموزا لا تبعث على فهم أو تمييز ....

فهل هناك برهان أسطع على هذا من تلك الحال الزرية ، والهاوية السحيقة التى انساق اليها المسلمون ، وغير المسلمين ، فى الهند ؟؟..

وهل الاسلام الا العزة والكرامة والاباء ؟؟.. فاذا ما انعدمت هذه المثل وانهارت تلك القيم ؛ فهل من المستطاع اذا أن نقول

ان الاسلام ما زال بخير ، أو تقول انه لم يبق منه غير القشور والأسماء المجردة ؟؟.. كان على الغافلين أن يتنبهوا ، وعلى الغارقين فى نومهم أن يهبوا ؛ كى يلبوا داعى البعث والنشور..
وشاء الله أن يكون «اقبال» فى طليعة الثائرين الداعين الى البعث ، ويا لها من تبعة ضخمة !!..

آباؤه :

ينتمى «اقبال» الى سلالة وثنية كريمة الأصل ، عريقة المنبت، كانت تعيش فى «كشمير». وكانت هذه السلالة من «البراهمة» أسمى وأكرم طبقات الهند ، وتنتسب الى «الجنس الآرى» ، فالبراهمة هم ذؤابة سكان الهند ، ولهم لواء العظمة ، ومعقد الفخار والسيادة والسيطرة ، والقيمة على طبقات الهند المختلفة ـ أمرها مطاع ، وقولها قضاء نافذ ، رغم أنها تعبد الأصنام ، وتقدس التماثيل. وكان لهذه الطبقة قانون مدنى وسياسى اسمه «منوشاستر»، يقسم المجتمع الهندى الى طبقات أربع ، تقسيما قاسيا ظالما ، على أساس الاستعباد ، والاستغلال الفظيع للطبقات الدنيا واحتقارها . فالبراهمة قوم ملحقون بالآلهة ، وهم صفوة الله ، وملوك الخلق ، وكل ما فى العالم ملك لهم .. وهم سادة الأرض ، لهم أن يأخذوا من مال عبيدهم ، أى الطبقات الدنيا ، ماشاءوا[1] . ولم يكونوا يدفعون اتاوة ، واذا استحق أحدهم القتل اكتفى بحلق رأسه فقط ، وترك حيا !!..

---

(١) للأستاذ الندوى .

تلك هى حـال «البراهمة» ، الطبقة التى انتمى اليها أجـداد «اقبال» . وقد تعجب أيها القارىء حين تعلم أ نهذه الأسرة قد تنـازلت عن امتيازاتهـا ، وحقها الالهى ، ومنزلتها الرفيعـة المرموقة ، تركت كل هذا لتنضوى تحت لواء الاسلام الحنيفه، الذى لا يفرق بين أبيض وأسود ، أو أصفر أو أحمر ، وكان ذلك بمحض رغبتها ، وبدافع من تفكيرها السليم ، فلم يرغمها على ذلك سـيف ، أو يدفعها دافع تافه ، من جزية أو تهديد أو وعيد !..

وبهذا أصبح ذلك الجد الأكبر ، الملقب بقلب «بنديت» فردا عاديا ، لا يعترف بالفرق الشاسع بين برهمى ومنبوذ .. وكانت هذه الهداية على يد أحد رجال الصوفية فى «كشمير» ، ولذا ظلت النزعة الصوفية متغلبة على أفراد الأسرة فيما بعد !!...

وهكذا نرى أن هذه الأسرة التى تقلبت فى أحضان البرهمية، وعاشت فى أبراجهـا العاجية وترى نفسها لاحقـة بالآلهة ومن دونها عبيد وحشم ، نراها بعد ثلاثة قرون قد أنجبت «اقبالا» الذى يقول :

« يجب أن تفنى فى دينك وملتك ، بعد أن تكسر أصـنام اللون والدم ، حتى لا يبقى فى العالم «تورانى» ولا «ايرانى» ولا «أفغانى» .. »

ثم يقول فى موضع آخر :

« ان مقاصد الفطرة الأولى ، ورمز الاسلام الحقيقى هى أن

تملك العالم بالأخوة ، وتحكمه بالمحبة ! .. »

فما موضع هذا الكلام بالنسبة لأجداده البراهمة الذين كانوا ينظرون الى المنبوذين نظرتهم الى الكلاب والقطط والبوم أو ما دون ذلك ؟؟..

وهكذا استطاع الاسلام ـ بسماحته الحقة ، وتعاليمه الخالدة ، وشريعته البيضاء ـ أن يغزو تلك القلوب البرهمية المتأنهة ، ويتغلغل فى أعماقها ، ثم يقوم بأخطر انقلاب مادى ومعنوى فى حياتها ، فتظهر فى ثوب جديد ، وتنطلق بقلوب جديدة ، ودوافع فطرية سليمة ، وهل الاسلام الا الفطرة السليمة والغريزة المهذبة الطيبة ، والاستجابات الطبيعية لنواميس الحياة ومؤثراتها ؟؟.. وما ان تسربت هذه العقيدة الاسلامية الجديدة عبر الأجيال الى «اقبال» ، حتى تلقاها باستعداده الصادق وبيئته العريقة ، وفهمه الدقيق ، فهتف بأنغامه الشجية ، وألحانه القوية حتى يثير روح البعث فى الخاملين من أبناء الهند ، مسلمين وغير مسلمين ، ولقد قال أحد زعماء الهنادك :

« ان «اقبالا» قد وضع المصباح على باب المسلم ، ولم يحجب نوره عن غير المسلمين ، بل أمكن للجميع أن يستضيئوا بنور ذلك المصباح »

وقد يثير هذا الانقلاب العجيب شيئا من التساؤل : أمن «برهمية» نافرة ، الى اسلامية وضيئة ، متضلعة مستقيمة ؟؟..

والجواب على هذا التساؤل سيكون بسيطا غاية فى البساطة، لو عدنا الى الوراء عدة قرون ، عندما أشرق فجر الاسلام أول مرة على الجزيرة العربية بقوته العجيبة ، وسحره النفاذ ، الذى استطاع به أن يحدث انقلابا نفسيا هائلا ، جعل من القبائل المتنافرة المتناحرة أخوة أوفياء ، يؤمنون بأن التفانى فى سبيل الحق ، والايثار والتسامح والاخاء والمساواة ، هى الحياة والنور والهداية . وسرعان ما اعتنقت وتصافت رايات «الأوس» و «الخزرج» بعد أن كانت ملوثة بدماء الحقد ، ولم تعد تخفق الا لله ، ولا تصطبغ الا بدماء الأوغاد والطغاة ، من خصوم دعوة التحرير والايمان ، واستطاع الاسلام الوليد أيضا أن يخلق من قطاع الطرق ، ولصوص الآكام حفظة للأمن ودعاة للسلام ، وحملة للنور والمعرفة ...

واستطاع الدين الحنيف أن يكسر حدة النفس ، ويكبح شهواتها ، ويجمع بين «بلال» و «أبى بكر» و «سلمان» و «على» ، فتلاقى السوقة مع الأشراف ، والعبيد مع السادة، لأن الطريق واحد ، والغاية متحدة !..

وهذا ما حدث فى الديار الهندية لأسرة «اقبال» فكان الانقلاب الخطير الذى بدل حياتها ، وشكل سلوكها وتفكيرها، وصبغ حياتها بهذه الصبغة الجديدة : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ؟! ... »

صحيح أن «اقبالا» كان يحظى بقدر كبير من الاباء والشمم

والكبرياء ، لكن هـذا كان مع قـوم ذوى مراكز مرموقة فى المجتمع الهنـدى ، لكنه كان فى الوقت نفسـه يظهر التواضع الجم ، والاحترام الزائد لمن هم دونه فى المرتبة ونباهة الشأن. فلقد دعاه أحد أصدقائه الأغنياء (١) فى «لاهور» ، الى وليمة عرس ، ولكن فى نفس الوقت جاء اليه أحد معارفه الفقراء ــ وكان طاهيـا ــ يدعـوه الى وليمة أقامها فى بيته ، فلم يتوجه «اقبال» الى مائدة ذلك الثرى ، بل ولى وجهه شـطر صاحبه الفقير ليكمل أفراحه ، ويضفى على منزله الهنـاءة والسرور ، لكن «اقبالا» المهذب لم ينس أن يمر على بيت صديقه الثرى؛ ليقول له : « لقد قبلت دعوتك فى كرامة صديقى الطاهى » . فكان اعتذارا لبقا جميلا .

وهكذا كان «اقبال» طول حياته مسلما قلبا وقالبا ، لا برهميا متعجرفا ... مسلما يبش فى وجوه البائسين والفقراء ، ويخالطهم ويجالسهم ويهتم بأمرهم !!..

لقد عرف «اقبال» نفسه فى غير زيف أو خداع ، وجردها من أوهامها وغلوائها ، وطهرها من عبثها وعثراتها ، ووقف تجاهها صريحا قويا . ثم عرف من هم أجداده فى الأمس البعيد ، وهم «البراهمة» ، ومن هم آباؤه فى الأمس القريب ، فقام من فوره؛ ليضع لنفسه، وللمسلمين فى شتى أنحاء الهند وخارجها، فلسفته

---

(١) عن كتاب « فلسفة اقبال » .

الميسورة الواضحة ، المستقاة من صميم عقيدته وكيانه وهتف قائلا :

« كان آبائى براهمة فى الكفر ، وزهادا فى الاسلام ، وعاشوا يفكرون فى ذات الله ، ورأيى أن تكون بداية التفكير نحو قدرة الله ، فى ذات الانسان – فمن عرف نفسه عرف ربه ... »

لقد أراد أن يبدأ الطريق من نفسه منطلقا الى الله سبحانه، فهو غاية الغايات ، ومنتهى الآمال .. وسنذكر شيئا موجزا عن فلسفته فيما بعد !..

والده :

اذا كانت فترة الطفولة هى التى تحدد مستقبل الانسان – كما يقول علماء النفس – وهى التى تسم تصرفاته ، لما قد يكون اكتنفها من حوادث ، أو ألم بها من مشاعر وعواطف وصدمات وغير ذلك ؛ – اذا كانت فترة الطفولة هكذا ، فانها فى الواقع قد أثرت فى «اقبال» أيما تأثير ، وتركت فى نفسه خطوطا عميقة ، مهدت لحياته التى ارتضاها لنفسه ، وأوضحت الطريق للخطة التى آمن بها وانتهجها . ومن بين تلك العوامل الهامة التى ينطبع بها الطفل ، منذ فجر حياته هى طبيعة الوالدين !..

لقد كان والد «اقبال» صوفيا زاهدا ، يهتز فؤاده رهبة واشفاقا ، وتدمع عيناه خوفا ووجلا ، كلما ذكرت الجنة والنار، وكلما سمع أو قرأ عن هول يوم الحشر ، ورهبة يوم الحساب،

ومثل هذا الانسان لا يفتأ يذكر أن رحلة الحياة قصيرة الأمد ، ومهما لازمناها ، ولهونا وانطلقنا فى رحباتها ، فان لآمالنا نهاية، ولأطماعنا عمرا محدودا ، فلا خلود اذا الا للعمل الصالح ، ولا خير فىشيء الا طاعة الله فيما أمر به ، والانتهاء عما نهى عنه !..

ففى كتاب «اقبال» — « أسرار الذات » — يقول :

« وقع على بابنا سائل وقوع القضاء ، ورفع صوته كأنه نعيب غراب ، وأخذ يهز الباب !.. ولما آلمنى تصايحه والحافه ، خرجت اليه .. فأهويت على رأســه بضربة بعثرت ما بيده ، مما جمعه طوال يومه ، فلمــا رأى والدى تلك الحــادثة اصفر وجهــه الأحمر ، وانحدرت الدموع نهرا على خديه وقال :

« تذكر يابنى جلال المحشر !..
يوم تجتمع أمة خير البشر ....
وأرجع البصر كرة الى لحيتى البيضاء !..
ونحول جسمى المرتعش بين الخوف والرجاء !...
كن يا بنى من البراعم فى غصن «محمد» !..
وكن زهرة يحييها نسيم ربيع «المصطفى» !.. »

فى مثل هذا الجو الروحانى الزاخر بالاشفاق من يوم اللقاء، العامر بالحب الخالص لبنى البشر ، المتأرجح بين الخــوف من المصير المجهول ، والرجاء فى الغــد المأمول ؛ — فى مثل هـــذا الجو عاش «اقبال» ينظر فيرى أباه لا يفتأ يتحسس — بأنامله المرتعشة الواهنة — تلك اللحية البيضـــاء التى تؤذن باقتراب

الرحيل .. وتنذر بانتهاء الرحلة الدنيوية القصـيرة ، وسرعان ما تحوم فى ذهنه مناظر المحشر ، ومشاهده العصيبة ، التى تنوء تحت ثقلها أقوى القلوب شجاعة ، ويتلعثم عندها أقوى الناس فصاحة وبيانا ...

وقد يظن ظان أن مثل هـذه الحياة الخائفة الوجلة ، وتلك القلوب الواجفة التى تظل تذكر القيامة والعـذاب والثواب ، تكون دائما نهبا للقلق ، وميراثا للحيرة والشقاء الذى لا ينفد ، لكن الحقيقة غير ذلك ، لأن مثل تلك النزعة الصوفية الطاهرة اذا ما سيطرت وتحكمت فى الانســـان ، سرعان ما يرى فى الحرمان لذة أى لذة ، ويرى فى خـوف الله طاعة لا تدانيهـا طاعة ، وسعادة لا تعادلها سعادة ، فلا حيرة اذا ، ولا شقاء ولا قلق ولا شك ، ـ وانما الرضا الشامل والسلامة والأمان !..

فلا عجب اذا ما ذكر «اقبالا» أبوه بالمحشر وهوله ، ثم أتبع ذلك بوصية رائعة لفلذة كبده الحبيب ، كى يكون برعما وضاء حيا ، فى الغصن اللدن النضير ، والفرع النبوى المونق ، ولكى يكون زهرة لا تنعشها الا النسائم الربانية ، ولا تحييها الا الخفقـات والنبضات الاســلامية ، ولا تستنشق الا ريح الدين وأنفاس الرسول العربى « محمد بن عبدالله » ...

وكأنى باقبال ، ذلك الفتى الغض اليافع ، وهو يتلقى تلك الأنغام السلســة تتدفق من فم أبيه فى ســهولة وغير تكلف ، صادرة من أعماق روحه المؤمنة ، نابعة من فيض نفسه الناصعة

الورعة ، فيتلقفها «اقبال» فى سهولة وغير تكلف أيضا ، ويتقبلها تقبلا سريعا طبيعيا ، ثم تسرى فى قلبه وفؤاده ، فتصير هـذه المعانى لديه هى الحياة !.. هى الاسـلام والسـعادة والنعيم الأبدى ، والراحة فى الدنيا والآخرة !..

ان الجـرعات الدينية النقيـة لهى الدواء النـاجع للبشرية الحائرة ، وان فى الكئوس الروحية الخالصة لنشوة سامية تنفى عن الانسان ظلمات الشك ، وتحجب عن عينيه أصنام اليأس ، والاستسلام ، وترده الى حظيرة الخير والحب والصفاء ، ولطالما ارتشف «اقبال» من تلك الكئوس فشفت من نفسـه جراحا ، وأبانت له عن طريق سـليم واضح ، وكشفت له عن أشـياء ، ما كان ليكشـف عنها ، وينعم بجمالها ، لولا تلك الجرعات النافعة ، وما أجمل قوله :

اليوم أسمعك احتدام مشاعرى وصراخ ايمانى وصوت منايا
المستحيل بدا لعينى ممكنـا سـأرى الخليقة مارأت عينايا

لم ألق فى هذا الوجود سعادة كمودة الانسـان للانسـان
لماسكرت بخمرها القدسى.. لم أحتج الى تلك التى فى الحان

هذا هو نتاج « الزهرة التى يحييها نسيم ربيع المصطفى » ، كما قال له أبوه من قبل ، وهـذا هو «اقبـال» الذى يوقد «شموع القلوب» بعد أن غرقت فى بيداء الظلمات ، ويبعث فى ثورة صرخة الايمـان والأمل ، بعد أن ضرب اليأس أطنابه ،

وساد «الهند» عسف وطغيان وفساد ، وطوى المسلمين خنوع واذلال !..

وهكذا عول «اقبال» على أن يصيح ويصيح ، حتى يملأ ربوع الهند والعالم الاسلامى صياحا ونداء ، كى يبعث النائمين فى الكهوف ، والموتى فى القبور .. قبور الضياع !.. ولكى يصرف القلوب الضالة الكافرة عن كأس الشيطان ، ويتجه بها الى كأس المودة ، وظل السلام والتحرر والمحبة !..

— ٢ —

بين العلم والعمل

ان الدعــوات الكبيرة ، ذوات المرامى البعيدة والأهــداف الانسانية ، قلما تنجح بالعصــبيات الجامحة وحدها ، وقلمــا تستطيع أن تمضى بين العواصف والأنواء الثائرة بهذا وحده ، فلا بد من الفكر الثاقب ، والعلم الواسع ، والقلوب الكبيرة الواعية والعقيدة القوية الصادقة التى لا اهتزاز فيها ولا غموض ... وعندئذ تسهل التضحيات ، وتتضح المناهج ، ويعى الداعية ما يقول ، وبالتالى يعى الناس ما يلقى اليهم ، فيشمون منه روح الصدق ، وبوادر الاخلاص ، ونوايا الوفاء !.. وهنــا تراود أخيلتهم أحــلام البعث والتحــرر ، وتظل تلح وتلح عليهم ، وتتجسم أمام بصائرهم ، حتى يستجيبوا لها ، ويهبوا كالأقدار النافذة التى لا تذعن ولا ترضخ ، ولا يخيفها بلاء مهما كثر ، ولا يروعها بذل مهما غلا ، ولا يعوقها حاجز مهما علا وصمد !..

نقــول ان الفكر الثــاقب والعلم الواسع والقلوب الكبيرة والعقيدة الصحيحة ، هى الاستعداد الواجب لمن يخوضون طريق الاصلاح والبعث والتحرير ، فهذه اذا هى القاعدة ، وحينمــا نقول العلم ، نقصد العلم عامة سواء من الشرق أو الغرب ، وفى «لاهور» أو «كمبردج» أو «ميونخ» !.. ونقول أيضــا العلم الذى يغزو العقول ، ويصل الى أعماقها ، فتفرزه وتفحصه ،

وتأخذ منه بحذر كل ما يفيدها ، ولا يخالف فطرتها ، أو يضاد عقائدها ومثلها العليا !..

ان من يتلقى كل شيء بقبول حسن ، ويقبل كل علم ، ويؤمن بكل نظرية ، دون فحص أو تمحيص ، فيلغى شخصيته ويتناسى وجوده ؛ ــ مثله كمثل الذى فقد حاسـة الذوق ، فهو يأكل الشهد ، دون أن يشعر له بلذة ، ويتناول المر دون أن يدرى له غصة أو مرارة ... انه يأكل فقط ليملأ معـدة خاوية ، ويقضى عادة متبعة ، وتقليدا جاريا .. ولكى يعيش !..

كان «اقبال» ــ شـاعر الاسـلام ــ من الصنف الأول من الرجال الذين ينهلون من العلم أنى وجدوه ، ويلحقون به أينما رحل !..

وفى أثناء ذلك ، كان «اقبال» يلتقط الآراء السليمة والحكمة العالية ، والأفكار المستحدثة وغير المستحدثة ، فينقدها ويفندها ويردها الى أصولهـا ، فيعلم الثمـين من التافه ، والنافع من الضار ...

وظل رأيه هـكذا متحرر النزعة ، متحرر الفكرة ، يناقش وينقد ، ويبتكر ، ويقـدم انتاجه فى ثوب رائع قشيب لاتملك أمامه الا أن تبـدى الاعجاب ، وكان نتيجـة ذلك أن أصبح « اقبال » ذا فلسفة جديدة ومذهب مستحدث ، وآراء عميقة ، يتناقلها الكتاب والفلاسفة من قطر الى قطر ، ومن جامعة الى جامعة ، فى «ايران» «والأفغان» «ومصر» «والمانيا» «وانجلترا»

«وايطاليا» «والروسيا» !...

أجل ، ان المقلد الأعمى لايأتى بجديد ، بل يجلب على نفسه السخرية والضحك أمام الأجيال التى تتوق الى الخلق والانشاء وتتلذذ بالجديد النافع ، وفى نفس الوقت تنماع شخصيته ، وتذوب فرديته أو « ذاته » ، التى حرص « اقبال » فى فلسفته أن يجعل منها رمز التقدم ، وشعار التحرر والمجد والخلود كما سنرى !...

• • • • •

ذهب « اقبال » منذ نعومة أظافره الى مكتب تحفيظ القرآن فى « سيالكوت » فما ان يتحرك النهار ، وينحسر ظل الليل رويدا رويدا ، وتثب الشمس من الأفق الشرقى حتى يكون « اقبال » جالسا يستقبل الفجر وأنداء الصباح تتمسح بوجهه البرىء الصغير ، فيهب فى نشاطه المعهــود ، ويصلى من خلف أبيه الشيخ الزاهد ، ثم يتلو القرآن ، وقد حرص أبوه ــ المربى الفاضل ــ على ألا تكون قراءة « اقبال » كلمات تلقى ، وآيات تتلى وانما قال له :

« يا بنى اقرأ القرآن ، كأنه نزل عليك ... »

وفى ذلك يقول « اقبال » :

« .. ومنذ ذلك اليوم بدأت أتفهم القرآن وأقبل عليه ، فكان من أنواره ما اقتبست ومن بحره ما نظمت !... »

كان الشيخ يريد لابنه أن يعى ما يقرأ ، ويفهم ما يتلو ...

ثم ماذا ؟... ثم يتصور أن هذا القرآن قد نزل عليه هو ، أى أن الله يخاطبه ويدعوه أن يعمل ويكافح ويثابر ، ويتلقى المسئولية كاملة ، ويقوم بأعباء أخطر رسالة ، وينهض بأثقل حمل ، فلكل مسلم دور كبير ازاء اسلامه ، فيجب أن يؤديه بكل دقة واخلاص ، فليس الاسلام استظهار متون ، وحفظ حواش ؛ ــ بل هو فهم وادراك ، وصيحة للحق والنور والهداية ، والسيدة عائشة (رضى الله عنها) تقول عن النبى (صلى الله عليه وسلم) : « كان خلقه القرآن !... »

وقراءة القرآن فى الصباح زاد رائع لا يدركه الا المجربون، ونور رزين طهور ، لايطرب له الا المؤمنون ؛ اذ أنه يطبع الانسان بطابع الرقة والحب ، ويبثه هدوءا وأمنا عجيبين !... لذلك كان « اقبال » منذ صغره فاحص النظرة ؛ ملهم الحكم ، يخترق بثاقب فكره الحجب المتكاثفة ، ويغوص بعقله المؤمن الى أعماق الحقائق !... فلا يقنع بالأصداف والقشور ، عن الجواهر ولباب الحقائق !...

ثم انتقل « اقبال » الى مدرسة « سيالكوت » ، وما ان أتم دراسته الثانوية حتى التحق بكليتها ، حيث تلقى أصول اللغة الفارسية والعربية على أستاذه السيد « مير حسن » !... ولقد امتاز طوال هذه الفترة ، بذكائه الحاد ، وبديهته السريعة ، وحوزه لقصب السبق بين أقرانه ولداته ، ونتج عن ذلك أن نال الجوائز السنية ، ونال فرصة الدراسة بالمجان ...

ولعل من نافلة القول أن نذكر شيئا عن أخـلاقه وسلوكه ، اللذين قد انطبعا بنشأته الدينية ومدرسته القرآنية ، وأسرته المؤمنة المتصوفة ، فكان سمحا هادئا معوانا ، رقيق الحاشية ، طيب العاطفة ، واسع الصدر ، يحترمه الجميع ، ويجله كل من اتصل به وعرفه حتى أساتذته ، وفى هذه الفترة ازدادت تأملاته، وازداد نشدانه للحقيقة ، كأنما كان يحلم بالاستقرار الفكرى وهدوء البال ، فاستمع اليه وهو يقول :

« أنا طالب النور ... أنا قلق فى معمورة هذا العالم ... أنا مثل الطفل الصغير فى ظلام الوجود الحالك ... أنا مضطرب كالزئبق !... »

فما السر فى هذا الاضطراب المفاجىء ، والحيرة المباغتة التى انتابت « اقبالا » ؟؟ ... لقد ودع « اقبال » طفولته الوادعة ، وصباه الساكن الهادىء ، وتعلم الكثير فى المدرسة والجامعة وقرأ عن الدنيا ، دنيا الأمس واليوم ، وسمع عن العالم الحديث عالم الغرب والشرق ، ولقد كان لهذه الفترة الانتقالية أثر فى حياته أى أثر ، وتلقى « اقبال » سنى شبابه ، فى شىء من الألم والقلق ،وكان لذلك سببان اثنان يكادان يكونان العاملين الهامين فى ذلك :

أولهما : أن الهند فى تلك الفترة ، قد استسلمت للاستعمار الغربى تحت التهديد والوعيد بعد أن لاقى الأحرار فيها ما لاقوا: من أذى واضطهاد ، واراقة دماء ، وتكميم أفواه ، وكبت

حريات !.. ولا شك أن للاجراءات الشاذة ، والتصرفات الجائرة التى يقـدم عليها المحتلون ، أثرا عميقا بليغا فى نفـوس الأمم المغلوبة على أمرها ، كما أن المعارك الدامية التى قد تنشب بين القاهر والمقهور ، ثم تنتهى الى النتيجة الدامية التى كثيرا ماتتبع صراع الحق الأعزل مع الباطل المسلح ؛ لا شك أن لذلك كله أثرا فى نفوس أبناء الشعب ــ وخصوصا الواعين الفاهمين منهم ــ فلا يعقل أن يستمتعوا بالهدوء فى ظل الطغيان ، أو أن ينعموا بالسعادة تحت جناح الفساد ، ويأنسوا بالراحة ، فى جو خانق مكفهر ، تئز فيه طائرات العـدو ، وتلوثه أنفاسـه الدنسـة الباغية !...

وثانيهما : الاسلام : الاسـلام الذى سـمع عنه « اقبال » رضيعا ، وتشربه معنى ومبنى ، منـذ أن درج فى رحبـة بيتهم الكبير ، والذى رأى سماته وملامحه تشع فى وجه أبيه الشيخ وأمه !.. لقد علموه صغيرا ويافعا أن فى الاسلام خير الدنيـا والآخرة ، وأن بين دفتى القرآن العصمة والمعرفة والهداية من الضلال ، والنجاة من الهاوية ، ثم تأكد هو نفسه أن التاريخ يحمل فى طياته للاسلام كل تمجيد وشكران ، وأن الدنيا ظلت تتغنى بتلك الأمجاد أجيالا وأجيالا !..

لكن ماذا قد حدث ؟؟..

لقـد نسى المسلمون كل هـذا أو تناسـوه .. فاستسلموا وتواكلوا وخيل اليهم أن هذه المصائب قدر لا يرد ، وقضـاء

نازل لا يستطيع أحد أن يمنعه !..

ضاقت نفس « اقبال » وفاضت بالألم والحسرة والحزن ، فهو يلتفت الى الماضى الزاهر العامر فيشعر بالقوة وبالسعادة تغمر جوانحه ، ثم يرتد طرفه الى الحاضر المزرى المخزى ، فيشعر بمدى الكارثة التى حلت بقومه ، وتوشك أن تفيض الدموع من عينيه فيصيح هاتفا : « أنا طالب النـور !.. أنا قلق !.. » النور الذى يقوده الى النصر ، والقلق الذى بذره فيه انتظار المستقبل المجهول . وطالب النور متى ألح فى طلبـه ، وصرف وقته باحثـا مفكرا مدققا ، مسلحا بالخبرة والمعـرفة معتصما بالصبر والنضال فهو لابد واصل الى ما يريد ، نائل ما يأمل ، هما أن تمر تلك الفترة الحائرة بنارها التى تنضج ولا تحرق ، وتنير ولا تعشى العيون حتى يهتف «اقبال» بعد سنوات قائلا :

مسلمـا ، ان ترد حيـــاة فهيا   مابغير القرآن تؤتى الحياة !..

فى « لاهور »

ان « اقبالا » يمضى الى الأمام ، تدفعه سورة الباب ، وعشق العلم ، وقلب الشاعر الفتى الطموح !..

لقد فتحت كلية الحكومة فى «لاهور» ذراعيها لاستقبال الشباب الذكى ، وأخلت له «جمعية حماية الاسلام» هناك منبرها، ليذيع من فوقه شعره القـوى النابض ذا الروح الجـديدة ، والأسلوب الفريد !..

وفى الكلية فاق وتقدم أقرانه ، فنال « ميداليتين » ذهبيتين، ومساعدة الحكومة الشهرية له جزاء اجتهاده !..

وعلى منصة « جمعية حماية الاسلام » أخذ يردد قصائده ، فجوبت شهرته الآفاق ، وسمع عنه القاصى والدانى !..

وبعد حين استطاع أن يحوز ثقة أصدقائه وعارفيه فى تلك الجمعية ، وبعد أن رأوا ما رأوا من غيرته على الدين ، ودفاعه عن الحق ، ودعوته الى الكفاح ، اختاروه سكرتيرا للجمعية !..

واستطاع «اقبال» أن يوائم بين الشعر والسياسة ، وان بدا كل منهما على طرفى نقيض !.. ولا عجب فى ذلك ، اذا ما عرفنا قوام ذلك الشعر وموضوعاته وأهدافه ، وعرفنا صيغته ، فشعر «اقبال» عماده الفقه المتين ، والمنطق السليم والوجدان الحى المؤمن ، يتخذ من أمراض المسلمين وأدوائهم ومشكلاتهم مادته، ولم يكن يهدف الا الى التحرر والخلاص ، والعودة الى الينابيع الأولى ، مع الاستجابة لأحداث العصر ، ومشكلات الساعة !..

وفى كلية الحكومة «بلاهور» التقى «اقبال» بأستاذه الفيلسوف المستشرق « توماس أرنولد » وهو من خيرة من درسوا الاسلام والتصوف الاسلامى ، وله مواقف كريمة فى الدفاع عنه ــ ورحب الأستاذ بميل تلميذه الى الفلسفة ، فكان له خير مرشد ومعين ، وسرعان ماتوثقت بينهما أواصر الصداقة، واستحكمت روابط الألفة ، ثم نال « اقبال » بعد ذلك شهادة فى الفلسفة !..

وكثيرا ما كان الأستاذ « توماس » يفخر بذكاء تلميذه ، ويعتز بصداقته ، وظلت هذه العلاقة وطيدة الأركان ، وقد

حدث أن «اقبالا» أثناء تجواله فى ربوع أوربا ، فى الفترة ما بين ١٩٠٥ / ١٩٠٨ م قد سيطر عليه حب العلم والفلسفة ، فأراد أن يتفرغ لهما ، ونفر من الشعر وعول على هجره الى غير رجعة، غير أن أستاذه لم يوافق على ذلك مطلقا ، فرضخ « اقبال » وواصل انتاجه الشعرى الذى امتزج بالفلسفة ، واختلطت به حقائق العلم مع سبحات الخيال !..

ولقد كانت صحبة « اقبال » لأستاذه «توماس أرنولد» ذات فوائد كثيرة ، ومدى بعيد فقد استمع « اقبال » الى رأى أستاذه فى كثير من المعضلات والأوضاع الفكرية، ونهل على يديه الشىء الكثير من الثقافة الغربية وفلسفتها ، وباضافة هذا الى استعداده الطبيعى استطاع «اقبال» أن يرتكز على قاعدة متينة وأن يثبت الأرض تحت قدميه ، فلا تهتز أو تميد به ، ولقد شهد له أستاذه بذلك فيما بعد ، حين طلب من « اقبال » أن يقوم بمهمة التدريس ، بدلا منه ، فى جامعة « كمبردج » لمدة ستة أشهر ، حظى « اقبال » أثناءها بالتعرف على عدد غير قليل من رجالات الفكر والأدب ، وأساتذة الجامعات ، فاتسع مجال صداقته كما اتسع مجال فكره ، فلم يكد يمضى على ذلك بضع سنوات حتى كان بعضهم ينحنى على الورق ؛ ليترجم الى الانجليزية ثمار تلك العبقرية الهندية المسلمة ، وكان ذلك على يد الدكتور « نكلسن » الذى ترجم ديوان « أسرار خودى » أى أسرار الذاتية أو الشخصية !..

نعود مرة ثانية الى « اقبال » ، بعد أن أنهى دراسته الجامعية « بلاهور » ، فنجد أنه قد عين أستاذا للفلسفة والسياسة المدنية بالكلية الشرقية فى « لاهور » ، ثم أستاذا للفلسفة واللغة الانجليزية فى كلية الحكومة هناك .. وكان ذلك هو الدليل المادى على تقديرهم لغزارة علمه ... ورجاحة عقله ، وعظيم عبقريته !..

كان « اقبال » ينشد آفاقا أرحب ، ومجالات أوسع ، فضلا عن أنه يريد مزيدا من .. المعرفة والفلسفة ، ويتمنى أن يرى بعينه معالم المدنية الحديثة ويلم بكل أطرافها ، لأنه لم ير منها فى بلاده غير ظلها الاستعمارى الأسود الجاثم على صدر « الهند » ، ولهذا قام برحلته الى أوروبا !..

فى بلاد الغرب :

قام « اقبال » بهذه الرحلة فى عام ١٩٠٥ م قاصدا «انجلترا»، ثم التحق بجامعة « كمبردج » ، ونال منها شهادة فى فلسفة الأخلاق ، وواصل سيره بعد ذلك الى حيث التحق بجامعة « ميونخ » ، فى « ألمانيا » ، فنال منها درجة « الدكتوراه » فى الفلسفة ، وبعد عودته الى « لندن » لم يضيع وقته فى العبث واللهو ، بل نال شهادة « المحاماة » من جامعة « لندن » !..

وفى أثناء ذلك ، توسع « اقبال » فى قراءته عن « نيتشه » و « هيجل » ، « شوبنهاور » وغيرهم ، وقارن بينهم وبين فلاسفة الشرق ، أمثال « ابن سينا » و « ابن رشد » و « ابن

عربى » و « جلال الدين الرومى » و « الشيرازى » !.. وغيرهم من الفلاسفة والمتصوفين !..

ولقد أصبح « اقبال » بعد ذلك ضليعا فى الفلسفة ، ملما بدقائق علم الأخلاق دارسا للقانون أعمق دراسة ، وقد أعانه ذلك على بحث تاريخ الثورات الكبرى ؛ كالثورة الفرنسية مثلا ، وعرف عن كثب حضارة الغرب الحديثة ، وعرف مقوماتها ودوافعها وأهدافها ، وأدرك عيوبها ومآخذها ، وتيقن أنها نهضة مادية رائعة ، لكنها نهضة عقلية لا قلب لها ، ولا روح فيها !..

وعاد شاعرنا وقد اكتسب الكثير من الأفكار الحديثة التى كانت أوزان الشعر وقيوده توشك أن تضيق بها ولا تتحملها ، لكن « اقبال » بما أوتى من لباقة وسعة أفق ، وامتلاك لناصية القول استطاع أن يجعل الشعر أطوع له من بنانه ، وأشد تلبية له من خادمه الوفى الأمين ، وهكذا مزج «اقبال» الشعر بالعلم ، وخلط قواعد الفلسفة وقوانينها بخفة الخيال وروعته ، فخرجت أوزانه قوية المعنى والمبنى ، أو كما يقول عنها :

كفاح شديد وضرب سديد فلا ترج فى الحرب عزف الوتر

وبعد أن درس « اقبال » الحضارة الغربية ومدلولاتها ، وقارنها بالحضارة الاسلامية ومضموناتها ؛ — خرج بنتيجة حتمية لا مناص منها ، اذ لا يمكن تجاهلها أو تناسيها ، لأن ذلك سيكون على حساب الانسانية ، وعلى حساب سعادة البشر !..

وهـذه النتيجة التى وصل اليها « اقبال » لم تكن نزعـة متعصب ، أو زعم متدين أخرق ، ضيق الفكر ، لا يرى الحق الا من خلال معتقداته ؛ بل كان تقريره نتيجة لتلك الدراسات الطويلة المضنية ، والتعمق وراء الفلسفات المتباينة ، وفهمـه للمـدنية الحـديثة فهما صحيحا دقيقا لا تحيز فيه ولا حيف ، وليس أدل على عدم التحيز من أن يذكر اقبال المميزات والمفاخر بجانب المثالب والمآخذ ، ويأتى بقضايا مدعوما بالأدلة والبراهين..

والآن ما هى النتيجة التى وصل اليها « اقبال » ؟..

قال للغربيين :

« ان حضارتكم سـوف تقتل نفسها بخنجرها .. ان العش لا يثبت على غصن رطيب ضعيف مضطرب .. » ؛ لأنها حضارة كافرة القلب ضائعة الروح ، وموازين القوى المادية هذه فى تغير وتبدل دائم ، فهى ان كانت للغرب اليوم ، فستزول عنه بأسرع من السرعة التى حصل بها عليها ، ولو أراد الغرب للبشرية خيرا لتلافى ما وقع فيه من أغلاط ، فى وسائله ، وأهدافه وسياسته!..

وتيقن « اقبال » أيضـا أن البشرية لن تسعد وتهنأ الا اذا حطمت فوارق اللون ، وعصبيات الجنس ، وبطلت اللصوصية العالمية ، وقضى على الاستعمار وعبادة المال ، ولن يتحقق ذلك الا فى ظل المبـادىء الاسـلامية الخالدة ، التى تحرم الغـزو الاقتصادى، ولا تشرع الرماح الا لاحقاق حق ، أو نشر هداية، ولا تؤمن الا بالسلام والأخوة والحريةوالقيم الانسانية الرفيعة،

لذا يقول « اقبال » فى معرض حديثه عن « عصبة الأمم » :

حكمـة الغـرب فرقة النـاس والاسلامفيه توحد العمران

خبرينى اليقين : هل عصبة الأقوام خير أم عصبة الانسان..

ثم يرى « اقبال » ان المسلم الحق ، والمـؤمن الصـادق الايمان هو الملجأ الوحيد لهذا العالم الحائر الزائغ ، فلن تمحى ظلمات الفساد والضلال والتحكم والتسلط والجشع ، الا بأضواء الاسلام ، وسفينة الحق الضائعة فى هذا العالم ـ عالم الهوى ـ لن تجد ربانا سوى المسلم الحق :

ان هـذا العصر ليـل ، فأنر أيها المسـلم ليل الحـائرين

وسفين الحق فى لج الهـوى لا يرى غيرك ربان السـفين

أنت كنز الدر واليـاقوت فى موجة الدنيا وان لم يعرفوك

محفل الاجيال محتاج الى صوتك العالى وان لم يسمعوك

كل ما خرج به « اقبال » من دراساته الواسعة ، ورحلته التى استغرقت ثلاث سـنين ، هو اليقين الكامل بأن الاسـلام هو الخلاص والنجاة للأمم الاسلامية بوجه خاص ؛ والعالم بوجه عام !..

وآب من رحلته عام ١٩٠٨ م حاملا بذور الدعوة الواسعة التى آمن بها واضعا الأسس الكاملة ، والقواعد الثابتة لذلك .. وسنتكلم عن ذلك فى حينه ، وسرعان ما اعتذر عن كل عمل رسمى انتدبته الحكومة له ، رغم ما فى ذلك من جاه ومال !..

ولقد تعمق « اقبال » فى دراسته للفكر الهندى والايرانى ، ونال قسطا وافرا من منـابع التراث الرومانى واليونانى قديمها وحديثها ، ونهل قدرا وافيـا من الثقافة الانجليزية والالمانيـة والفرنسية والأمريكية ، هذا فضلا عن الميراث الفكرى الاسلامى والعربى ، الذى صرف فيه اقبال معظم مجهوداته !..

أما اللغات التى أجادها اقبال فهى : « الاوردية »و«الفارسية»، وقد كتب بهما دواوينه وكثيرا من محاضراته وخطبه، والانجليزية ـ وكما قلنا آنفا ـ انه كان مدرس الفلسفة واللغة الانجليزية فى كلية الحكومة « بلاهور » ؛ كمـا أنه قام بالتدريس لفترة قصـيرة فى جامعة « كمبردج » ، ولقد ألقى محاضرة باللغـة الانجليزية فى « دار الشبان المسلمين » بالقاهرة ، أثناء عودته من مؤتمر المائدة المستديرة عام ١٩٣١ م ، ومحاضرة أخرى فى دار « المؤتمر الاسلامى » فى القدس ؛ كما أنه كان عظيم الاتقان للألمانية والفرنسية، ولكنه كان يعرف العربية والسنسكريتية !..

هذا هو « اقبال » العالم الدءوب على الدرس !..

« اقبال » الذى اعترف بفضله وعلمه الهندى وغير الهندى ، فلقد استدعاه ملك الأفغان ؛ ليستشيره فى الأسس التى يجب أن تقـوم عليها جامعـة « كابل » المزمع انشـاؤها آنذاك ، واستقبلوه هناك أعظم اسـتقبال وأروعه ، فلم تنسـه روعة الاستقبالات رسالته الكبيرة ، ولم تفتنه أعلام التقدير ، وزينات الترحيب ، عن أن يزاول نشاطه ، ويكتب ديوان «مسافر» أثناء هذه الرحلة !..

ولا عجب أن يتغنى بشعره أبناء « الأفغان » ، ويردده أشبال « ايران » فى لذة وشغف ، ثم يترجمه أحد أبناء « تركيا » ؛ لينعم الترك بهذا التراث العظيم ، وهو الدكتور « حسين دانش » ، الذى كتب عدة مقالات عن ديوان «اقبال» « بيام مشرق » أى رسالة الشرق !..

ومن وراء جبال « الهملايا » ، وخلف التلال والهضاب يسارع أحد علماء « الروسيا » ، متكلفا المشاق والأهوال ، راكبا الأخطار والأوعار حتى يلتقى « باقبال » ، وينقل عنه مبادئه وأصول فلسفته ، التى أودعها ديوانه : «أسرار خودى»..

أما فى « ألمانيا » ، فقد قام الأستاذ « دايشو روسو » والدكتور « فيشر » الاستاذ بجامعة « ليبزج » وصاحب مجلة « اسلاميكا » ، والشاعر الألمانى الفيلسوف « هانسى » ، ـ هؤلاء جميعا ترجموا « لاقبال » وكتبوا عن شعره وفلسفته ، وقارنوا بينه وبين « جوته » الشاعر الألمانى العظيم و «نيتشه»، بل قامت هناك ــ فى ألمانيا ــ جمعية اسمها « جماعة اقبال » تشرف على ترجمة آثاره ، ونشر مبادئه فى ربوع البلاد وفى أروقة الجامعات !..

وهكذا فعل « اسكاريا » فى ايطاليا ، و « ميكنرى » فى أمريكا ، و « نكلسون » والمستشرق « براون » فى انجلترا ، والدكتور « عبد الوهاب عزام » فى مصر ؛ اذ كان له الفضل الأكبر فى التعريف « باقبال » فى أرجاء العالم العربى وذلك

بترجمة بعض دواوينه الى العربية ؛ « كرسالة الشرق » ، و « ضرب الكليم » ، و « أسرار خودى » ، و « رموز بى خودى » ، وبالكتابة عنه ..

* * *

وأخيرا أكان « اقبال » عالما بحتا ، وفيلسوفا صرفا ، قد ملأت رأسه الأفكار ، وغطت أشعاره الصفحات فحسب ؛ — أم كان رجلا يقول ما يعتقد ، ثم يعمل بمقتضى هذا الاعتقاد؟؟..

ان واقع حياته يجيب على كل ذلك ، فيقطع كل شك ، ويدنى كل يقين ، فقد طرد « اقبال » ابنه من بيته لما علم انه يعاقر الخمر ، وضحى « اقبال » بالمناصب العالية والمرتبات الضخمة؛ ليتفرغ لرسالته الكبرى، وآثر أن يعمل فى وظيفة مرشد قانونى حر ، فيقدم المعونة والارشاد لكل محتاج دون مقابل ، وألحوا عليه فى مقاطعة « البنجاب » أن يرشح نفسه عضوا فى المجلس التشريعى هناك ، وأقول ألحوا عليه الحاحا فليس « اقبال » بالذى يتهافت وراء المظاهر ، ويجرى خلف المطامع الفانية ، ثم تقدم بعد نجاحه بتشريعات تتعلق بالضرائب ، التى يرزح تحت أعبائها الفقراء والفلاحون ، وبين الظلم الواقع بهم ووجوب تخليصهم منه !..

وتقدم بتشريعات للقضاء على الخمر ، ذلك السم الزعاف !..

وأثناء اقامته فى أوروبا لم تستهوه البدع أو يخدعه البريق فينغمس فى الشهوات والملاهى .. بل كان يعقد المحاضرات ،

يتحـدث فيها عن الاســلام وبنوده العادلة ، وعن اشتراكيته وسماحته المشرقة وعقيدته الشريفة التى تجعل الانسان لا يحنى رأسه الا لله !.. وبكى على أطلال الأندلس ومجدها الاسلامى الغابر ، ودعا الى انقاذ « فلسطين » من براثن اليهود ، والاحتراس من الأحابيل التى ينصبها الاستعمار ، وكان ذلك قبل أن تحل بها النكبة الكبرى !..

لقد كان « اقبال » عالما وعاملا ..

وهذا هو مثل الاسلام الأعلى : علم صحيح سليم ، وعمل صادق لوجه الله لا يعرف اليأس ولا الوهن ، ولقد كان «اقبال» يلفت النظر دائما الى أن الدين اذا لم تترجم مبادئه الى أعمال ، ونظرياته الى وقائع ، فسيكون اذا فلسفة مجردة ، ولن يكون دينا أبدا بأى حال من الأحوال !!..

— ٣ —
فلسفة «إقبال»

لكل فكرة تخطر على بال أى انسان دوافع !..

ولكل فلسفة تنبع فى عقل أى عبقرى بواعث وأسباب !..

وكثير من الفلاسفة قد أدخلوا عنصر الالهام ضمن هذه البواعث !..

والآن ، ما هى بواعث فلسفة « اقبال » ، والدوافع التى أشعلت هذه الفلسفة ، فجعلتها ملتهبة كالنار ، حمراء كالدم ، قوية كالسيول الجارفة ، نابضة بالحيوية والخلود ، ناطقة بالأمل والتفاؤل ؟..

لقد نظر اقبال حواليه ، فماذا رأى ؟..

المسلمون يرتعون فى بيداء الجهالة ، ويضربون فى فيافى الغفلة ، والاسلام الناصع الحى أصبح عنوان الذلة والفقر والضياع : تلوثت عقائده بفعل الكائدين والمخادعين ، وجرى العبث فى شرائعه بفعل المتزمتين ، لذا أصبحوا محكومين بعد أن كانوا حاكمين ، وأمسوا رعايا مستعبدين بعد أن كانوا سادة أشرافا ، وتلفت « اقبال » حائرا وكأنى به يقول : اذا فهذا هو الحال وياله من مآل تعس !..

ترى ما هو الداء الذى نخر فى أجساد أممنا وشعوبنا ، فأورثنا

سوء المآل ، وذل الحياة ؟.. وكان أول داء وقعت عينه عليه هو أن المسلمين يخافون الموت ، ويحرصون على الحياة بعد أن صاروا مزقا وأهواء ، ونحلا متباينة ...

فلا بد اذا أن يعودوا الى « ذاتهم » ؛ لأنها مصدر الحركة والعمل ومصدر النور والحياة ، ومركز الانسانية ومدار الخلود ، يجب أن يعود الانسان الى « ذاته » يقويها ويدعمها ، وينفى عنها الخوف والجبن والحرص الغبى ، ويردها الى الطريق الحق ، وهكذا آمن « اقبال » « بالفردية » أو « الذاتية » ؛ لأنها الأصل ومنها البداية ، واهمال « الذات » هو الجهل بأصل الداء ... وأس البلاء !!..

وشيء آخر أدركه « اقبال » !...

ان الناس يهابون الحكام ويخافونهم ، وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، لكن هذا الخوف ، وتلك الهيبة أصبحت ضربا من العبودية المقيتة ، ونوعا من التأليه السخيف ، فلا يكاد يرتفع صوت باستنكار ، أو تنادى عقيرة باحتجاج ، أو يقف انسان ليعترض على باطل .. لذلك صار العسف فريضة ، والقانون هوى متبعا ، والمثل العليا مطية للأغراض والشهوات الجامحة ، فليس عجبا أن تذل النفوس ، وتصبح أشد طغيانا من الجاهلية الأولى ، غير أن أوثان الجاهلية الأولى كانت من حجر أو خشب ، أما الأصنام الحديثة فمن لحم ودم ، ويصف «اقبال» هذه الحالة قائلا :

« ان الأصنام ما زال المسلمون يعبدونها حتى اليوم ، وان

ادعوا الايمان بالله ، وان لهذه الأصنام صورا عديدة .. وألوانا شتى ، ويا حبذا لو علم المسلم الذى ينشد الهداية أن سجوده فى الصلاة لله وحده ، خير له وأجدى عليه من هذا « الشرك الحديث » !!..

وأن السجود لله هو الخير والنجاة ، وان كان ثقيلا علينا :

تلون فى كل ثوب «مناة» [1] وشاب بنو الدهر وهى فتاة
فهذا السجود الذى تجتويه به من ألوف السجود نجاة

فما معنى كل هذا ؟؟..

لا معنى له الا أن المسلمين قد شاب عقيدتهم كثير من الفساد والضلال ، فشوهت عقيدة التوحيد ، فكان أن اتخذوا من قصور أمرائهم وحكامهم ومستعمريهم معابد يطوفون حولها ، ويجثون بأبوابها ، ويمرغون شرفهم وكرامتهم ومجدهم فى ترابها ، كما أنهم قصدوا أضرحة الأولياء ، وأقبية الموتى ، وحثوا اليها المطايا ، وزفوا اليها الركبان ضارعين مستغفرين لذنوبهم ، ولا ذنب الا خمولهم ، راجين الشفاء والعافية والأرزاق ، والشفاء أقرب اليهم من حبل الوريد !..

وتيقن « اقبال » أن المرض الثانى والداء العضال الذى انتاب المسلمين ، — هو فساد التوحيد !..

---

(١) مناة = صنم كان يعبد فى الجاهلية !..

أما الشيء الثالث الذى علمه « اقبال » فقد كان مؤلما حقا !..

أن المسلم اذا نظر لهوان حاله ، وضعة قدره ، صدمته الحقيقة المرة وهاله الأمر الواقع ، وبدلا من أن ينفض عن كاهله غبار التقاعس والتقاعد ، ويقفز من جديد الى سلم المجد والكفاح تراه يقول : وماذا أعمل ..؟؟ ما بيدى حيلة ، هذا قضاء الله وقدره، وتلك ارادته ومشيئته ، وليس على الا الرضوخ والاستسلام لأمر الله ، فهل أتمرد وأثور على سنن الله وارادته ؟ .. لا شك أن هذا خبال وسوء أدب ومروق وفسوق !... هكذا يقول المسلم لنفسه دون أن يأخذ للأمر عدته ، ويصاول الحياة ويصارعها ؛ كى يهزم صعابها ، ويتغلب على عقباتها ، حتى يصل الى المرتبة التى أرادها الله له !..

وفكر « اقبال » فى هذا الداء الجديد ـ أو الداء الثالث ، وبعد أن فهم أعراضه ومضاعفاته شخصه قائلا : ان هذا هو التواكل . فالمسلمون ينسون ان لهم ارادة مضمونها الحرية والاختيار لا الجبر والقهر والارغام ، وأن الانسان مخير لا مسير !..

واذا شئت أن ترى كيف عرض « اقبال » هذه الصورة فى حوار شعرى بديع أخذه عن « محيى الدين بن عربى » ؛ ـ فانظر هذه القصيدة التى يدور فيها الحوار بين « الله سبحانه وتعالى » وبين « ابليس » فى حضور الملائكة !..

ان « ابليس » يظهر أولا ايمانه بوحدانية الله وقدرته ، ثم ينفى عن نفسه الكبر والمروق ويقول : يا رب اننى لم أسجد لآدم الا

لأنك كتبت فى علم غيبك أننى لن أسجد فما ذنبى ؟؟.. فيرد عليه الخالق سبحانه بما يفحمه ويربكه فيقول سبحانه : هل عرفت ذلك الأمر وهذا القدر المكتوب قبل أن تعصى أم بعد العصيان ..؟؟ فلا يسع ابليس الا الاقرار بجرمه ، والاعتراف بذنبه ، وأنه ليس بريئا من تحمل المسئولية ، وها هى ذى القطعة شعرا كما ترجمها « الدكتور عزام » :

ابليس : ــ يا الهـا أمره كـن   ليس عنه من محيـد
ويل غـر من زمان   ومكان فى حـدود
كيف أسـتكبر عن   أمرك أو كيف أحيد؟؟
كان فى علمـك أنى   حائد عن ذا السجود
الخالق : ــ هل عرفت السر هذا   قبل أو بعد الجحود؟؟
ابليس : ــ بعد، يا من من تجليـ   ـه كمالات الوجود
الخالق : ــ (ناظرا الى الملائكة)
خسـه الفطرة فيـه   علمتـه ذاك عـذرا
قال: ماشئت سجودى   أنا لا أملك أمـرا
ذلك الظالم سـمى   اختيارا فيه جـبرا
انه سـمى رمـادا   شـعلة فيه وجمـرا

و « اقبال » الذى أراد أن يكون طليعـة ايقاظ ، ورسـول بعث ثائر فى هذه الامة قد هاله أمر عظيم وموضوع ذو خطر ، هو أن المسلمين ينظرون الى ما يعتريهم من آلام ، ويكتنف حيـاتهم

من نكبات ، ينظرون الى ذلك كله على أنه عنوان للحظ المنحوس، وسوء الطالع ، ويحسبون أن الحياة السـهلة الهينة ، والنعمة السخية الوفيرة هى الدليل الأوحد على رضا الله وحبه لعبده ، ورحمته به .. لقد أغمض المسلمون أعينهم عن منابع دينهم الأولى، ونسوا أن الله قد يختار أقواما ، لابتلائه ، حتى يرى ماذا سيكون من شأنهم حينما تدلهم الخطوب وتبلغ القلوب الحناجر ، ونسوا أن المؤمن الحق يشكر النعماء ، ويحمد الله على الضراء ويصبر عليها ، ويظل يعمل ، ويكافح حتى يخرج من محنته ، وقد ازداد معدنه نفاسة ، وجوهره قيمة وقدرا !..

وهذا هو الداء الرابع !.. فالمسلمون يستنكفون من الحياة التى يهزها الكفاح ويملؤها النضال ، ويهربون من تحمل الصـعاب والآلام ، وينشدون السكون والدعة ولو عاشوا فى أكناف العبودية وخمول الذكر ، حتى لكأن الحياة لقمة سائغة ، وقنطرة سـهلة ميسورة ...

أما الداء التالى فقد كان لا يقل خطورة وأهمية عما قد سلف من أمراض .. ففى هذه الظروف العصيبة وجدت فئة من الناس أدركت الهاوية السحيقة التى تدهور اليها مستقبل الأمة ، فهالهم ما رأوا وأتعسهم ما جد من أمور ، وكان الظن بهم أن يمدوا الى هؤلاء المترددين أسباب النجاة كى يأخذوا بناصرهم ، وينقذوهم من بؤرة الشقاء ، لكنهم كانوا على عكس ذلك تماما ، فقد انقسموا قسمين :

القسم الأول :

راوده اليأس القاسى ، فلم يجد مناصا من أن يسد أذنيه بأصابعه ، حتى لا يصل الى سمعه نداءات الضائعين ، واستغاثات الهائمين على وجوههم فى أودية الأسى ، ويا لها من جريمة ..

والقسم الثانى :

قبع فى الصوامع ، وودع العمران والسكن ، وعاش يعبد الله راهبا قانتا لله ... ونأى بنفسه عن مهاترات الدنيا ومعارك الحياة ، وقنع بخلوته الضيقة عن العالم الرحيب ، وأغمض عينيه عن أضوائه البراقة المضطربة التى لا تعرف الثبات والهدوء !...

وأمسك « اقبال » بقلمه ليسطر التشخيص للداء الخامس (اليأس والرهبنة) ...

ولكم صرخ « اقبال » فى هؤلاء الواهمين ذوى الآفاق الضيقة ، كى يعلمهم أن من لم يذق طعم الآلام لا يستسيغ حلاوة الراحة ، ومن لا يتمرغ فى أعطاف الصراع والكفاح لا يدرى جلال السلام والحرية ، ومن لا يتناول جرعات من الشقاء لا يدرك جمال السعادة ، لهذا نراه يقول :

إن حباب خمرة الآمال لا	يرقص الا فوق أمواج الألم
والله فى حكمته علمنا	أن انشراح الصدر قبله ألم

آلامنا الى العلا أجنحة	نعلو بها فوق مطارات النسور
الروح سر والحياة ظلمة	وشعلة الآلام للأرواح نور

هذا بعض ما قاله « اقبال » فى أولئك الذين ضاقوا ذرعا

بالآلام ، وتكاليف الكفاح واعتبروهما لعنة سماوية ، وغضبة من الله قد انصبت عليهم ، أما اولئك اليائسون الذين فقدوا الأمل ... وأماتوا الرجاء فقد قذفهم « اقبال » بأمثال السهام الفتاكة حين قال ما ترجمته :

منحت القلوب هياماجديدا أثرت البعيد به والقريب
ولكن خلقت بأرض بها نفوس العبيد برق تطيب

وشهر سيف القول فى وجه هؤلاء اللائذين فى حمى الصوامع والكهوف والخلوات ، وكأنه يقول لهم لا تفروا من المعركة ، ولا تهربوا من الحياة التى خلقتم لها وخلقت لكم فتراه يقول :

خلا الصوفى من حرق وكد شراب(ألست)معذرةالبطاله[1]
وفر الى ترهبه فقيه يرى فى الشرع معترك البساله
اذا خشى الرجال وغى حياة فتلك هى الهزيمة لا محاله !..

« فالصوفى » الذى تواكل محتجا بالآية « ألست بربكم ... » و « الفقيه » الذى ودع الحياة الى دنيا الصوامع والعزلة ؛ كلاهما هرب من الميدان ، وأشفق من تكاليف الجهاد ، فدهمنا الاستعمار ، واستغلنا الحكام ، ولم يكن لنا أن نجنى غير الهزيمة !!..

وكان خاتمة المطاف ، وآية البلاء ، وشر الداء تلك النزعة العاتية المجنونة التى تتجه ناحية الغرب وثقافته وحضارته دون

---

(١) يقصد آية : « ألست بربكم .. الخ » والمعنى ان الكسالى يلقون بأحمالهم على الله ويلوذون بالخمول ..

فحص أو تمحيص ، ومطالبة الناس بالأخذ بها دون قيد أو شرط غير مراعين فى ذلك ظروف البيئة ، والأحوال الاجتماعية ، والتقاليد المرعية ، والمعتقدات الدينية ، ودون النظر الى التراث المحلى الذى تناقلته الأجيال فى شتى ضروبه وألوانه ومظاهره ، فانبثت تيارات الالحاد والزندقة ، وشاعت موجات الانحلال وعدم التقيد بشىء من القيم التى توارثوها ، وظنوا أن كل ما أتى به الغرب جميل نافع سواء فى النواحى المادية وغير المادية ، ولم يدققوا فى وسائل الحضارة الغربية ولا أهدافها ، أو الركائز التى تعتمد عليها ، لأن الشعوب كانت جائعة الى هذا المتاع المادى .. والرقى العلمى والترف الظاهر بعد أن أنهكها الفقر ، وحطمتها الحاجة ، وألهثها الطغيان والفساد ، وآلمها الجمود والرجعية ، فكان أن اندفعت هذا الاندفاع الأرعن ، وانساقت هذا الانسياق الأعمى .. وأوشكت أن تنسى أن للروح مطالب كما أن للجسد رغبات !..

رأى « اقبال » ذلك وهو الشاعر المؤمن ، والفيلسوف الدارس ، والعالم العامل الذى جاب أنحاء أوروبا ، وارتاد جامعاتها ومنتدياتها ، ودرس تاريخها وقوانينها ومكتشفاتها ومفاسدها ومفاخرها ، فرفع « اقبال » يده عاليا فى وجوه الحشود الحمقاء ، التى أسلمت قيادها للغربيين دون قيد أو شرط ، وقال الكثير من شعره فى ذلك الموضوع وخلاصته أن سلام العالم ورفاهيته يتوقفان على .. التوفيق بين حضارة الغرب والشرق ،

وحضارة الشرق تبتغى فيما آتاها الله الدار الآخـرة ، ولا تنسى نصيبها من الدنيا ، وتوفق بين العاطفة والعقل ، والوحى والعلم ، والمادة والروح ، وهاك قطعـة مترجمة من شـعره فى منظومة « جاويدنامه » تظهر هذا المعنى :

« فى الغرب العقل مصدر الحياة !...
وفى الشرق « العاطفة » قوام الحياة !...
وبواسطة الحب « العاطفة » يحيط العقل بالحقائق !...
فيعزز شغل الحب .. انهضوا وأقيموا دعائم عالم جديد !...
بالتوفيق بين العقل والعاطفة !...
... الخ !.. »

***

وضع « اقبال » هذه الأدواء الستة أمام عينيه ...

وفكر « اقبال » ... فكر كثيرا فى الحياة وكنهها ، وفى مقاييس الهزيمة والنصر ومعايير القيم والمثل العليا ، وفى الخلود وحقيقته ، وكان غاية تفكيره وبحثه ايجاد عالم رشـيد ، وانسانية مترابطة حانية وحياة رخية سعيدة ، وجال ببصره عبر الأجيـال وحقب التاريخ ، حيث رأى الاسلام ... الرسالة الخالدة بين المد والجزر ، وبين الارتفاع والانخفاض ، ثم تلفت الى العالم الغربى الذى ساد وشاد وحارب وملك بعد أن سفك الدماء وأهدر المثل ، فهز اقبال رأسه ، وهو موقن أن البداية يجب أن تكون من الانسان نفسه ،

من « ذاته » ... ذاته القوية التى لا تتيه فى الآفاق ، ولكن الآفاق هى التى تتيه فيها لأن كل ما خلق فى هذا العـــالم مسخر لتلك الذات القوية النامية :

انمـا الـكافر حـيرا ن له الآفـاق تيـه (١)
وأرى المـؤمن كـونا تاهت الآفـاق فيـه

ولقد جعل « اقبال » بداية فلسفته ، ونهايتهـا : الايمان بالله ، واتخذه أساسا ...

وبعد هذا العرض السريع لبواعث فلسـفة « اقبال » ، ما هى اذا هذه الفلسفة ؟؟..

وسأجيب عن هذا السؤال فى حذر واقتصاد ، وايجاز بعيد عن التعقيد والمصطلحات العلمية لأننا الآن بصدد الكلام عن شـعر « اقبال » وفلسفته من ناحية معينة ، ومن زاوية خاصـة تتعلق بحركة البعث الكبرى ، التى اهتزت لها جنبات الهند وتغير بهـا مصيرها !...

وخلاصة فلسفته أنها اسلامية ، وتحمل فى ذراتها طاقة البعث لهذه الأمة الراكدة ، وأضواء الاستكشاف وأشـعة المعرفة التى تزيل الظلمـات والغياهب ، الناسـجة خيوطها حول هـذه الملة البيضاء !...

***

(١) مأخوذة عن « ابن عربى » فقد قيل ان مرضعة الرسول لما فقدته لقيها جبريل وقال لها : لا تخشى عليه أن يتيه فى الآفاق ؛ فهذه الآفاق تتيه فيه .. »

هناك فريق من الصوفيين يؤمنون بوحدة الوجود ، ويرون أن الفردية وهم وعبث وأنانية وغرور ، وليس لها وجود حقيقى على ظهر البسيطة ، بل الحقيقة أن الكائنات وحدة واحـــدة مرتبطة ؛ لهذا فهم يرون أن غاية الانسان الاندماج الكلى فى الوجود ، كما تندمج القطرة الضئيلة فى البحـــر الخضم الواســع ، أو الذرة المتناهية الصغر فى كثبان الرمل العريضة الهائلة ، ومن هنا كان مذهب الفناء فى الله كما يفنى الشعاع الواهى الضعيف ، فى دنيـا لا نهاية لها من الأضواء والأنوار ...

وكذلك آمن أصحاب مذهب الفيلســوف « هيجل » بنظرية الوحدة هذه أعمق الايمان !!..

وقف « اقبال » ازاء هؤلا وهؤلاء وغيرهم ، وقال :

« لا ... بل هـــذا الزعم هو عــين الوهم وعين الخيـــال والضياع !.. »

« ان هذا الظن مدعاة لذوبان « الشخصية » وانهيار « الذات »، وخمود الحياة وخمولها ، وأساس للضــعف والوهن ، والأرزاء التى اجتاحت الأمة وبدلت حالها !..

« ان كل انســان له كيان ووجود وشخصــية قائمة بذاتها ، ومميزة عن غيرها تمييزا جليا واضحا ...

« ألا ترون أن الله واحد وان اتصف بكل كمال وتنزه عن كل نقص ؟..

« ألا ترون أن الكائنات ــ أى هذا الوجود الكبير بما فيــه

ـ مجموعة من الفرديات المتباينة ذات الخصائص المعينة ، فهنا أشجار ونبات ، وهناك طيور وحيوانات ، والأشجار فيها الخوخ والحنطة والصفصاف ، بل ان النوع الواحد تختلف أفراده فى صفاتها ... انظروا الى الانسان ـ هذا أسود وذاك أصفر ، وهذا سقيم وذاك سليم !..

ورغم أن لكل انسان ـ أو كائن ـ شخصيته وذاته الا أن بين هذه الوحدات أو الفرديات نوعا من التوافق ، وضربا من التطابق، وشيئا من النسق والنظم ، ولا شك أن سعينا الغريزى ، وكفاحنا الفطرى يجعلنا دائما تتقدم الى الامام ، وينقلنا تدريجيا من الفوضى الى النظام ، أو بمعنى آخر يخلق بيننا ذلك التوافق وذلك التطابق وذلك النسق والنظم .

« ونحن دائما فى حاجة الى الكفاح والسعى المتصل ونحن فى طريقنا الى الكمال المنشود والمثل العليا المرسومة ، وهذا السعى وهذا الكفاح هما عمل الكائنات ، وعمل الاجيال المتلاحقة، وكل جيل عبارة عن حلقة من حلقات نضالنا فى سبيل الوصول للكمال ، فعمل الكائنات اذا مستمر متصل « لامتناه » ـ فالكائنات اذا حقيقة غير كاملة .. » ، فأنا وأنت لبنة مميزة فى بناء الوجود الكبير ، وكل لبنة تتعاون مع أختها ، وتبذل قصارى جهدها وطاقتها ، حتى يظل البناء شامخا قويا لا يتزعزع ولا يرتج، بل يكون دائما فى ازدياد مطرد من حيث القوة والمتانة ، ومن حسن السمو والارتفاع .

أنا فرد ذو شخصية مميزة ..
وأنت فرد كذلك بذاتك الخاصة ...
والغير كذلك ...

لكننا نتعاون ونتضامن ونكافح كي تقوى ذات كل منا ؛ لكي يسعد الـكون وترتقي الانسانية ، ونصل الى درجة الكمـال الاسمى ، ومن هنا سميت فلسفة « اقبال » بفلسـفة الذات او « خودى »

ولقد ضرب لنا « اقبال » مثلا عن الفرد ، وعن كيفية سـلوكه مع المجموع :

هو فى المجمـــع خال	ومن الحشـــد طليـق
مثل شمع الحفل فى الحفل	وحيـــد ورفيــق
مثل شمس الصبح، فكر	فيـــه نـور وبريـق
لفظـه حــر يسـير	لـكن المعنى دقيــق
نظـر فيــه سـديد	عن بنى العصر سحيق

انه وان كان فى مجمع من الناس ، الا أنه متميز بثاقب فكره ، وحدة نظره ، وحريته فى قول الحق والعدل ؛ مثل الشمعة التى تميزت بنورها ونارها ، وان كانت رفيقة الجميع ، وفى خضم هذا الحفل الحاشد . فما تعريف الذات أو «خودى» عند «اقبال» ؟؟..

هى حالة من الجهاد المتصل ، والتـوتر النفسى ، والـكفاح المستمر ، وكل ما يطفىء فيها شعلة الحماس للعمل ، ويخمد فيها

ثورة التوثب ، للنضال والسمو ، ـ فهو قبيح مرذول ، أما الذى يقويها وينميها ويدفعها دفعا الى الامام ويقربها الى الغاية ، ويحفظ عليها حالة التوتر فهو جميل محبوب ، ولازيد القارىء ايضاحا أقول : ان الحياة اذا خلت من الاجتهاد والعمل والحركة فهى موت وفناء ، ولو كانت الحياة مجردة من الرغبة والعمل ، فماذا يمكن أن يبقى فيها ليشوقنا اليها ؟؟.. هل يكون هناك من معنى او حكمة لتلك الكنوز من المعادن المخبوءة تحت الارض فى الطين والتراب ، والتى تحتاج الى الحفر والجلد ، كى نستخرجها ؟؟..

لا خير فى حياة تقضيها فى صمت وجمود !..

ولهذا قال « اقبال » :

« ان الذات تقوى بتوليد المقاصد ، وايجاد الرغبات وخلق الامانى » فاذا ما كان للانسان غاية يسعى اليها ، فلا شك انه سيجد ويتعب للوصول اليها ، ولابد له أن يتغلب على مايعترضه من عقبات ، وما يدهمه من صعاب ، ويعالج أمرها بما أوتى من قوة ، وصادق عشق (١) ، لأن الغاية جميلة (٢) وتهون ازاءها كل الصعاب والآلام !..

أما « شوبنهاور » الفيلسوف الغربى فقد رأى أن الحياة نهايتها الموت ، وأنها طمع وجشع ، والانسان لا تقف آماله عند حد ، انه

(١ ـ ٢) سنتكلم عن العشق والغاية فيما بعد !..

جائع دائما ظامىء دائما ، وطمـوح دائما ، يتوق الى المجـد ، ويتشوق للتسلط والسيطرة ، وماذا بعد ذلك ؟؟.. اما أن يئوب بالحسرة والفشل ، فيسخط ويلعن سوء الحظ ، وفساد الطالع، وقسوة الأقدار ، أما اذا نال شيئا ، وحقق أمنيته ، فلن يستمتع بها أكثر من أيام أو سنوات معدودة ، أو عمرا قصيرا ، ثم يعقب ذلك قبر يفغر فاه ليلتهم الفريسة ويحطم كيانها ويسحق عظامها ، ويمتص دماءها ، وكأن لم تكن شيئا .. لكن « اقبال » ثار على زعمهم هذا ، وكأني به يقول لهم :

« ويحكم !.. أمن المعقول ان يخلقنا الله عبثا ؟؟.. أمن المعقول أن تظل الشمس والسموات والأرض مدى الدهر وطول الأبد ، ثم نندثر نحن بهذه السرعة فلا تقوم لنا قائمة بعد ذلك ؟؟..

كلا ، ان الخالق سخر لنا الكواكب والشمس والقمر ومختلف الكائنات ، وسـخر القوى المادية لنتوسـل بها الى ما نريد ، ونتخذها مركبا يسرع بنا نحو الغاية . اذا كان هذا العمر الطويل من نصيب هذه الاكوان المسخرة لنا فما بالك بنا ــ ونحن اشرف قدرا ، وأعلى منزلة منها ــ أنمضى هكذا سريعا ونودع الحياة الى غير رجعة ؟؟.. ليس هذا صحيحا !..

هناك شيء اسمه الخلود !..

أجل ، الخلود !..

فنحن أسمى من أن تكون حياتنا ومضة زمنية قصيرة لارجعة

لها ؛ ونحن أيضا أعظم من أن نذوب وننماع فى بحر الوجود العريض !..

وما الموت الا البرزخ الذى تتخطاه الى عالم الخلود ، وما القبر الا الزورق الصغير الذى يحملنا الى شاطىء السلام الاخضر الأبدى ، فالجسم قد يبلى أو قد يموت الا أن « الذات » تأبى الممات ، وترفض الفناء ، لأنها خالدة :

ان صانت الذات المتينة نفسها
أعيت على الأيام كل ممات

ولقد وصف « اقبال » عقيدته تلك وعقيدة « أفلاطون » ـ التى تشبه عقيدة « شوبنهاور » ـ فقال :

أفلاطون : يبصر الموت عاقل ، فحياة
كشرار بجنح ليل يشب
اقبال : ما الى الموت والحياة التفات
مقصد «الذات» رؤية الذات حسب

ان « أفلاطون » يرى الحياة كالشرارة الخافقة فى جنح الظلام، سرعان ما تلفها أكفان العدم ، أما « اقبال » ، فلا يلتفت الى حياة أو موت ، بل جل همه أن تقوى ذاته ، وتظل فى مدارج سموها ورقيها حتى تحظى برؤية الذات المتكاملة المنزهة ، التى لا شبيه لها ، ألا وهى الذات الالهية : ففى ظلالها يرفرف الخلود ـ وتقف الغايات والآمال ، ولذلك يقول « اقبال » :

« غص فى البحـر ، وحارب الأمواج ، فان خلود الحيـاة فى الكفاح !... »

ثم يضرب « اقبال » عشرات الأمثلة التى ينتزعها من الطبيعة التى أحبها ؛ ليدلك على قضية الخلود ، فيقول ان انطفاء النجوم بشير بانبلاج الصبح ، وتبديد الظلام ، مثل موتنا الذى نعقبـه الحياة الخالدة ، وانتهاء عهد البراعم بداية لعمر الزهر :

فنـاء « ملايين » النجـوم مبشـر
بأضـواء شمس فى السـماوات تولد
ونوم الردى سـكر سـيعقب نشـوة
بخمـر حيـاة فى الخلـود تجـدد

وتـوديع أيام البـراعم مـؤذن
بخلق الزهـور الباسـمات جمـالا
ومصنع هـذا الـكون بالخلق دائر
فانى أرى فيـه السـكون محـالا
وليس سـوى التغيير فى الـكون ثابت
يغـير حـالا ثم ينشىء حـالا

ان البذرة يدفنونها فى ظلمات الارض ، وقبر التراب فهل تراها ماتت ، وغشاها البلى ؟؟... وهل انطفأت نيران حياتها ، مع طول بقائها فى ظلمات الأرض ؟؟ كلا ... لقد ألقت عن كاهلها ثقل الموت ، واستعادت حياتها من جديد ، وتوشحت بأجمل الابراد ، واحلى

الأثواب ، وخلقت من موتها حياة جديدة :

لقـــد دفنـــوا فى التراب البـــذورا
فلم تفن فى لحـــــــدها الهـــــامد
ولم تنطفىء نارهـــــا فى الحيـــــاة
على طـــول مرقـــدها البـــارد

لقـــد نسجت للحيـــاة القبـــاء
وصـــاغت من الزهـــر أبهى حـــلاه
نما غصـــنها زاهـــرا واســـتعادت
من المـــوت تجـــديد ذوق الحيـــاة

واذا كان للخـــــلائق نامـــــو
س يرينـــا الصـــباح بعـــد المســـاء
فـــكذا تذهب الحيـــاة ولـــكن
بعـــد ليـــل الحمـــام صبح البقـــاء !

ان من يظن ان تلك الحياة ايام معدودة ، لن يكترث بعبودية أو حرية ، بل سيقبل الحياة على علاتها ، اذ كل همه أن تمر مرورا ، وتندثر اندثارا ، ما دامت بلا غاية ولا فائدة ترجى من ورائها ، فكان لزاما على « اقبال » أن يخنق تلك التيارات القاتلة القذرة فى مهدها ، فأخذ العدة لذلك وتهيأ بالســلاح ألا وهو فلسـفته الخالدة «فلسفة الذات» التى ذكرها فى ديوانه «أسرار الذات» !..

ثم ماذا يقصد « اقبال » بكلمة العشق ، التى تتردد كثيرا فى شعره ؟؟...

يقول « الأستاذ أبو النصر الهندى » :

« انّ العشق فى مفهومه المطلق هو الشىء الّذى يقوى الذات وينميها ، ويدفعها الى الكمال الخالد ، والعشق معناه جذبك الشىء أو طلبك اياه ، لتجعله جزءا من نفسك ، وأسمى صور هذا العشق وأعلاها وأفخمها هو توليد المقاصد ، هو خلق القيم ، والغايات ، ثم العمل على تحقيق هذه المقاصد والآمال !... »

ولقد دلل « اقبال » على أن هذا العشق بمفهومه الحق يدعنا نؤمن أيضا بمذهبه فى « الفردية » ؛ لأنه يعتقد أن العشق يجعل الطالب فريدا والمطلوب فريدا أيضا ، فكيف ذلك ؟؟... انك اذا طلبت أو عشقت شيئا وتمنيته فان غـيره لا يرضيك ولا يروى غلتك ، لذلك فان ما تطلبه وتقصـده فهو فريد فى ذاته ــ مثلك تماما ــ اذ أن غيره لن يقوم مقامه فى اشباعك وارضائك .

فالعشق ــ كما ألمحنا سابقا ــ يقوى الذات ، والاسـتجداء يضعفها ، ويهرق ماء حيويتها وكيانها !...

انه وقود يثير الحركة والتدفق والتدفع ، ويشعل الحماس ويؤجج العاطفة .. وهو الطاقة التى اذا انطلقت لم تعقها السدود ولا القيود ، لأن الذات العاشقة فوق الزمان والمكان ، وهى القدر وهى القضاء ، فاستمع الى « اقبال » وهو يتحدث عن معراج الرسول ، فيقول :

« ان الذرة الضئيلة الهزيلة اذا سرى فى كيانها الشوق لاقت

الصقر القوى الجسور ، ساخرة منه هازئة بقوته ، فيفر من أمامها ولا عجب فى ذلك فان الحماس قد قلب أنفاسها الوادعة الى شرر متقد ، وهكذا المسلم الحق اذا ما اعتصم بالشوق والعشق وكانت له غايات ومقاصد أصبح كالسهم المنطلق الذى تسمو غايته عن التوافه والصغائر ، فهى غاية لا شبيه لها غير الكواكب ، فى علوها وفى المعراج أسرار هذا العشق ، ومغزى قوة الروح العاشقة :

وذرة طار فيهـــا الشـــوق صـــاعدة
تغــير فى عرصـــات الشمس والقمـــر
يا رفقـــة المرج .. تلقى الصـــقر مقدمة
دراجـــة تمـــلأ الأنفـــاس من شرر
المسـلم الســـهم والأفـــلاك غايتـــه
سرائر الـــروح فى المعــــراج فادكـــر

ان الانسان ــ بعاطفته الممزوجـة بالعشق ، وبقلبـه المملوء بالشوق ــ يرى مالا تراه العين المجردة ، ويدرك ما لا تدرك الحواس الظاهرة !..

والعشق هو الذى يثير الرغبة فى الكائنات ، ويوقظ فيها جمرة الحياة ، فتحس بنعمتها وجمالها وروعتها ، وغاية العشق تقـوية الذات ورقيها ، والسير بها قدما نحو الحرية والكمال الخالد ، وغاية العلم أن يبرز لنا قليلا من الصفات التى قد لا تثبت على حال ولا يستقر لها قرار ؛ لأن العلم محض تساؤل حائر ، وفى شـك دائم ، ولكن العشق جواب رائع لاستفساراتنا وتساؤلنا ، حقا

انه جواب خاف على بعض المغرورين والمخدوعين والنائمين ، لكن تدركه القلوب الواعية ، والأرواح المتوثبة الذكية !...

ألا ما أروع العشق وأحلاه !... ألا يكفى أن تكون معجزته ملكا خالدا ، وسلطانا سامقا تعنو له الكائنات ؟؟... ولا أدل على بزوغ هذا الملك ورسوخه من ذلك الفقر (١) الغنى ، وهذا الدين — دين الله — الذى يسبغ الحب والسعادة على الوجود !...

لقد علمنا العشق أن الرضوخ للراحة والاستسلام فى جوف المنازل وعلى الفراش الوثير ، علمنا أن ذلك فى شرعته حرام .. وعلمنا أيضا أن ركوب الأهوال وامتطاء الاخطار واقتحام الصعاب ، ومغالبة أمواج البحر ، ومصارعتها هى الحلال فى سنتنا ، الواجبة فى شريعتنا ، وما عدا ذلك : من راحة واخلاد للهدوء والسكون ، فهو ضعف ، ووهن لا يرضاه الله ، ولا تقره شريعتنا الغراء :

قال لى العلم غرورا « انما العشق جنون »
قال لى العشق مجيبا « انما العلم ظنين »
لا تكن سوس كتاب يا أسيرا الظنون

فمن العشق شهود
ومن العلم حجاب

من لهيب العشق ثارت ثورة فى الكائنات
وشهود الذات للعشق ، وللعلم الصفات

---

(١) سنتكلم عن معنى الفقر فى شعر (اقبال) فيما بعد

ومن العشـــق ثبـــات وحيـــاة وممـــات

علمنـــا سـؤل جلى

عشقنا خافى الجواب

معجـــزات العشـــق ملك زانـــه فقـــر (١) ودين

وعبيـد العشـــق أدناهم له عـــرش مـــكين

ومن العشـــق زمـــان ومـــكان و (مـــكين) (٢)

انمـــا العشـــق يقين

وبـــه يفتـــح باب

ألفـــة المنـــزل فى شـــرع من الحـــب حـــرام

خطـــر البحـــر حـــلال راحـــة الســـرب حرام

خفقـــة البرق حـــلال وفـــرة الحب حـــرام

علمنـــا نســـل كتاب

عشـــقنا أم الـــكتاب

ويلاحظ أن « اقبال » لم يغمط العلم حقه بل أثبت له فائدته العظيمة ، وجدواه التى لا نستطيع أن ننكرها ، وليس هذا بغريب من « اقبال » الذى كان عالما كبيرا وفيلسوفا مقداما ، غير أنه أراد لهذا العلم الكافر أن يعلن ايمانه بالله ، ويسير جنبا الى جنب مع العشق أو الالهام فيسعد كل منهما بجوار الآخر ، ويسعد العالم من جراء ذلك الوئام . فالعلم وحده مضل كافر مغرور لا غنى له

---

(١) انظر « ١ » فى ص ٥٨

(٢) هو من يحل فى المكان ، وهو لا يستعمل فى اللغة العربية كثيرا

عن الدين ؛ كى يكبح جماحه ، ولا غنى له عن العاطفة الطيبة كى ترقق حاشيته ، فاذا كان مع هذا العلم عشق وايمان وقلب فسينتج من هــذا كله « ابراهيم » جـديد يحطم « أصنام » الضــلال والفسوق والعصيان !...

العلــم ان لم يضف نجــوى الــكليم الى
رأى الحــكيم فمـــا للعــلم من قـــدر

لكن كيف يوجد العشق ؟؟..

ان ذلك يكون ـ كما قال « اقبال » ـ بحبنا النبى (ص) ؛ لأن محمدا كانت سيرته وأخــلاقه المثل الاعلى ، وكان بأقــواله وأعماله الانسان الــكامل مع الحــرب والسلم ، مع الأصــدقاء والأعداء ، وبمعنى آخر كانت أخلاقه القرآن ، ومتى فهم الانسان هذا الفهم عن « محمد » (ص) ووعى كنه رسالته التوحيــدية السامية ، ثم أتبع الفهم والوعى بعشق صــاحب هذه الأفضــال والميزات ، فقد علم مدى العشق ومعناه عند « اقبال » !..

ولا شك أن حبك لمحمد ، وعشقك اياه ، سيدفعك حتما الى السير فى طريقه ، واقتفاء أثره فى حياتك ، وهذا هو الهدف !...

ويقول « اقبال » فى ذلك :

« كل من يكون متاعه عشق « المصطفى » ، يكون البر والبحر فى طرف ذيله ... »

ولفلسفة « اقبال » مراحل ثلاث :

هذه المراحل الثلاث يجب أن يمر بها الانسان حتى يصل الى

الغاية التى كان « اقبال » ينشدها وهى خلافة الله فى الأرض !...

المرحلة الأولى : ــ التى يجب أن تمر بها « الذات » هى خلق المقاصد ، وتوليد الرغبات !... وهذه هى صفة الحياة والدافع اليها ؛ فالحياة بلا هدف ركود وموت ، ويقول الأستاذ « أحمد برويز » صاحب « معارف القرآن » فى هذا الصدد ان من يتدبر القرآن الكريم ، يبدو له جلياً أن الاسلام عبارة عن نظام حيــاة يسمى دينا !!...

فقد بين القرآن للحياة الانسانية مقاصد ، وحد حدودا ، وجعل للانسان الاختيار والاجتهاد ، غير متعد هذه الحدود وهذه المقاصد، والحدود لا تتبدل فهى حقائق أبدية ، وقيم للحياة خالدة .

فالحياة اذا آمال متفتحة نابضة ، وغايات نبيلة سامية .

أما المرحلة الثانية لتطور الذات وارتقائها فهى مرحلة النضال المستمر والكفاح المتصل ، أو الجهاد الذى لا ينى ... لماذا ؟؟... لتحقيق الغايات والأهداف والمقاصد ، التى تحدثنا عنها فى المرحلة الأولى ... فلن تموت أمة ــ أو فرد ــ اذا ما اعتصمت بالكفاح والصبر ، ولن يهلك شعب اذا ما تسلح بالجد والمثابرة ، ولن تبلى حضارة اذا ما تحصنت بالعمل الخصيب المنتج والروح القــوية الملتهبة !... وعلى الانسان أن يسخر الكائنات المادية الطبيعية ؛ كى تساعده فى كفاحه هذا ، وأن يتخــذ منها وسائل ومركبات ليستعين بها على العقبات والمشاق ــ فما هذه الأكوان ، الا من أجل الانسان وخدمته ، وما هذه العوالم المادية الا رهن مشيئته ،

لهذا يقول « اقبال » :

الأرض لاتخفى حقيقــــة جوهـــرى
أنا مقصـــــد التقـــدير فى الأكوان
وحقيقتى نور فمـــــالى ســـابحا
فى لجـــة الظلمـــات والأشـــجان

أنا أمـــــة فيمــــا أريد لأمتى
وولايتى دنيـــــا من الأجيـــال
وأرى بمنظـــــار الحقيقـــة كل ما
يبـــديه فى الحــق الصريح خيـــالى

فاخلق لروحــــك من زئيرك نشـــوة
فى المجــد ترهب فى العـــرين أسـودا
واجعل نشـــيدك قول ربك « لا تخف »
حتى يهــاب البرق منـــك رعـودا

والعشق أو الهيام ، هو وقود هذه المرحلة الهامة .

ولقد شرط اقبال هذه المرحلة بثلاثة شروط : لكل شرط منها مغزاه ومعناه فى تقوية الذات وتربيتها ، ومن المفيد أن نذكر هذه الشروط الثلاثة ، قبل أن ننتقل الى المرحلة الثالثة :

(ا) ــ الشرط الأول : ــ هو الطـاعة والانقيـاد لأوامر الله سبحانه ، والعمل على تنفيذ ما أمر به ، والانتهاء عما نهى عنه ، لأنه هو الخالق الاعظم ، الذى يدرى كنه تكويننا ، وسر خلقنا ،

ودقائق طبيعتنا ، وخفايا سلوكنا ومشاعرنا وعواطفنا .. ثم انه ـ جل وعلا ـ العليم بما ينفعنا والبصير بما يضرنا والحكيم الذى لا يخطىء فى تقدير ... وشتان بين قدرة المخلوق الضعيف الواهى وعظمة الخالق القوى الجبار !...

ولا شك أن طاعة الانسان لربه اذا كانت عن عقيدة ثابتة وايمان راسخ فهى تملأ القلب سعادة ونورا ، وتغمره حيوية واشراقا مما يسهل عليه تكاليف هـذه المرحلة ونفقاتها ـ مرحلة الكفاح والنضـال ..

فلو تصورنا مجتمعا شأن كل أفراده طاعة الله ، والعمل فى حدود شرائعه وأحكامه ، فسنجد أن مثل هذا المجتمع لن يحدث فيـه تصادم المنافع الخاصة وتصارع المكاسب الفردية ، بل سـيكون مجتمعا متفاهمـا متوائما ... يعيش فى ظـل المودة والسـلام ، ويستمرىء الكفاح والنضال !...

(ب) ـ الشرط الثانى : هو ضبط النفس وهو وثيق الصـلة بالشرط الأول ... ان النفس لها نوازع وأغراض ، وتحتدم فيهـا مشـاعر ومطالب وتعتمل فيها شـهوات ورغبات ، فلو أطلق لها العنان فسارت بلا كابح يكبحها ، أو منظم ينظمها وينسقها ، ـ كانت النتيجة الحتمية شرا وبلاء !...

لهذا كان من الضرورى أن يوضع لهذه النفس الحدود التى تلزمها الجادة ، والرياضة التى تعودها على السلوك المستحب ، والنظام المرغوب فيه ، وليس هذا معناه كبت الغرائز ، والحكم

بالاعدام على الطبائع الفطرية .. وانما المقصود من ذلك تهذيبها ، أو اخراجها فى ثوب لائق ، وابرازها بطريقة منظمة مشروعة والمحافظة عليها وتوجيهها الوجهة السليمة التى تدفع الى الامام دائما فتساعد ولا تعوق ، وتسمو ولا تنحط !...

بهذا يتم التعادل والتوازن على وجه ما ، فى تلك الذات التى يحتشد فيها كثير من الصفات المتناقضة المتضادة ، وبغير هذا الشرط ـ ضبط النفس ـ يحدث التنافر والتضارب بين صفات الذات ومقوماتها .. فتكون النتيجة سيئة ..

ولابد أن اقبال قد فكر كثيرا فى معنى الحديث النبوى الشريف الذى قاله الرسول لأصحابه حينما عادوا من الحرب : « رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر » قالوا : « وما الجهاد الاكبر يا رسول الله ؟.. قال : جهاد النفس » !...

وبهذين الشرطين سالفى الذكر ـ طاعة الله وضبط النفس ـ تصفو النفس من اكدارها ، وتنقى الافكار من ادرانها وأوشابها، أى أن الانسان يتطهر قولا وعملا ، ويصبح قاب قوسين أو أدنى من الشرط الثالث وهو :

(ج) ـ نيابة الله فى الأرض ، ونيابة الله لا تعنى الحلول محله سبحانه لأن ذلك يستلزم خلو المحل وانعدام شاغله أولا ، كما يقول الفلاسفة ، وانما يعنى بنيابة الله القوة التنفيذية التى تتولى اجراء حدود الله وشريعته ـ أحكام القرآن ـ وهذه القوة التنفيذية تتحلى بالعدل والرحمة وبعد النظر والايمان العميق ، وتتجلى فى

الذات الكاملة القوية ، التى تعتبر كل ما يقويها خيرا محضا وكل ما يضعفها شرا محضا ، ويصور اقبال الذات فى هذه المرحلة تصويرا دقيقا فيقول ـ ان الذات آنذاك ستكون خالدة باقية وليست كلمحات النجوم الفانية ، وان محضرها وغيبتها كلاهما خير وبركة وأنها بريئة من العبودية والرق لغير الله ، فتصبح « الذات » سيدة للانس والجن ، ولا غرابة فى ذلك ، فهى مكان النيابة لله عز وجل !...

رأيت الكواكب لمحات نور ... وذاتك «بالعشق» رهن خلود
تعالى ضميرك عن كل لون ... قعفت من اللون كل القيود
وغيبة « ذاتك » ذكر وفكر ... ومحضرها شعرها والنشيد
اذا أضنت الروح آلام رق ... ففنك عبد رهين سجود
وان عرفت قدرها كنت حقا ... على الانس والجن رب الجنود

وبانتهائنا من الشرط الثالث نأتى الى المرحلة الثالثة ، هذه المرحلة هى مقام المؤمن الكامل ، صاحب الارادة والاختيار ، الذى يغلب الدنيا ولا تغلبه ، ويقهر الوجودولا يقهره ، ولا يهاب الموت بل يبتسم له ويعتبره البرزخ الى عالم الخلود الأبدى ... انه المؤمن الذى يسخر الكائنات ، ويخضع له الوجود ، ويملك الكثير من عرض الدنيا ، لكنه لا يستهويه او يغريه او يستعبده بل هو مع ملكيته للدنيا طليق منها ، حر من قيودها واغرائها ، وهو ما يعبر عنه « اقبال » بالفقير أو القلندر « الدرويش » انه سلطان الوجود فى حوزته الكثير لكنه فى غنى عنه ، لهذا قد يكون الانسان ملكا

ذا خدم وحشم ، ومال وفير ، وسلطة محدودة ، لكنه « بذاته » القوية القانعة فقير أو قلندر ، وهــذا معنى كلمة الصمد ، وهى احدى صفات الله تعالى !...

ومثل هذا المؤمن الكامل يظل يصعد فى مدارج السمو والرفعة ، محاولا أن يتصف بصفات الله ، ومحاولا التقرب بصفاته الربانيــة الى الذات المطلقــة ... ذات الخالق الأعظم ، وهــذا مصــداق الحديث : « تخلقوا بأخلاق الله !... » ومصداق الآية : « كونوا ربانيين ... » !..

عندئذ اذا نطق هذا المؤمن الكامل ، الذى يشق طريقه اللانهائى الى الكمال ، اذا نطق بالصدق ، واذا اتى عملا كان صوابا ، واذا حكم حكما كان عدلا وحقا ، واذا دقق النظر ادرك حقائق الاشياء .. فعن ابى هريرة رضى الله عنه فى حديث قدسى عن رسول الله صلى الله عليــه وسلم « من عادى لى وليا آذنتــه بالحرب ، وما تقرب الى عبدى بشىء أحب الى مما افترضــته عليه ، وما يزال عبــدى يتقــرب الى بالنوافل حتى احبه ، فاذا احببته كنت ســمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذ بى لاعيذنه !.. » ــ رواه « البخارى » !..

تلك هى المرحلة الأخيرة لتربية « الذات » ، والجمــاعة التى تتكون من أفراد تلك صفاتهم هى الامة المسلمة الحقــة ، فالامة المسلمة فى نظر « اقبال » مجموعة من الذوات الكاملة أو التى

فى طريقها الى الكمال ، ومثل هذه الامة جديرة بقيادة البشرية الى سبيل السلام والنور والحب والخير ، « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله .. »

وفى مثل هذه الامة المثالية يقول « اقبال » :

« انها تعلو فوق الامم . لانها امة نيطت بها الامامة فى الدنيا والآخرة فهى لا تنى عن مواصلة أمور الخلق ؛ لأن النوم والتعب محرمان عليها !...

انها فى البساتين عندليب حسن التغريد ، وفى الصحارى باز خفيف سريع الانقضاض !..

الأمير فيها فقير على الرغم من كونه سلطانا كما أن الفقير فيها أمير على الرغم من كونه «درويشا»

وفى قصيدته « طلوع اسلام » يقول :

أنت يد قدرة الله أيها المسلم وأنت لسانها !...

فهيا اخلق يقين الهمة ولا تعش أسير الأوهام !..

ان الدنيا تفنى ولكنك أعظم خلودا من الدنيا لك مجد الازل ولك نعيم الأبد أيضا وأنت رسالة الله الاخيرة فى الارض لذلك فأنت موصول الدوام !..

اقرأ مرة أخرى فى سيرتك الاولى ، اقرأ دروس الصدق والعدل والشجاعة ، لانك انت المنشود لتسود العالم مرة ثانية . هذه هى مقاصد الفطرة الأولى ورمز الاسلام الحقيقى : أن تملك العالم

بالاخوة وتحكمه بالمحبة : ما الذى محا استبداد
« قيصر » وشدة « كسرى » ؟؟...
أكانت هناك فى العالم قوة تحارب الجبـابرة
سوى قوة « على » وفقر « أبى ذر » وصـدق
« سليمان » !...
ان نظرة المؤمن تغير الاقدار !.. »

تلك هى الخطوط الرئيسية لفلسفة « اقبال » ، فلسفة القوة والبعث والأمل والتحرر والخلود !..

فهل كانت هذه الفلسفة دواء للأمراض القتالة التى انتابت الأمة الاسلامية المضيعة أم لا ؟..

وهل استطاع « اقبال » أن ينفخ فى نفير البعث فيوقظ النيام ويحيى الرميم ؟..

-٤-

إقبال والفن

الانسان .. ذلك الكائن العجيب.. ما طبيعته ؟..وما كنهه ؟..

انه قبضة من تراب شرفتها نفحة قدسية من روح الله أو أضاء ظلمتها الأرضية ومضة من نور الله القدسى الاسنى ، فنتج عن ذلك هذا المخلوق الذى تلتقى فيه روحانية السماء ، ومادية الأرض ، فصارت الحياة معركة دائمة لا ينتصر فيها الا من عرف ذاته ، وبدأ رحلته من نفسه !..

من هذه الزاوية نظر « اقبال » الى الحياة والناس ثم كون آراءه ومعتقداته على أساسها ، فكانت فلسفته التى ذكرنا موجزا لها ..

الفن :

ما هو ؟؟... وما غايته ؟؟...

انه ذلك الانتاج الفذ ، أو العمل الرائع الذى تخرجه عقول ذات ميزة واستعداد خاص والذى ينبع من صميم الوجدان النابض ، والشعور الواعى والذى يصور مكنونات الصدور ومخزون الافكار فى براعة وابداع والذى يرسم للحياة صورا ناطقة صادقة ..

فالفن باعث للنور فى دياجي الحياة ، مرسل للبهجة فى آفاقها ، حامل لمشعل الأمل والهداية فى جنباتها ، جاعل من مادتها الثرية الفريدة متعة للنفس ، وسعادة للروح ، وتسلية لها فى حياتها الصاخبة ــ فما قيمة الفن اذا لم يغرد للمكافحين أناشيد البطولة ؟.. وما جدواه اذا لم يفتح الآفاق فى وجوه البائسين ، ويوسع الآمال أمام الضائقين المتكدرين ، وما نفعه اذا لم يأخذ بيد الحائر ؟.. فالفن بألوانه المختلفة هو الزاد الروحى والشراب المعنوى لهذه الجموع الزاحفة نحو الكمال فى طريق الخلود الأبدى .

لهذا فالفن نور وهداية وغيث وغوث ورفيق وأنيس ولهذا كانت غايته خيرا محضا وهنا يلتقى الفن بالدين ويضع يده فى يده ويسمو بالانسانية نحو القمة المرموقة والآفاق الرحيبة التى تموج بما يسعد الحياة ويجعلها جديرة بالاحترام والحب .

أما أولئك الذين يؤمنون بمذهب الفن للفن دون التقيد بغاية معينة أو هدف خاص ، ودون الالتفات الى الناحية الخلقية فقد كان اقبال ينفر منهم بطبعه لأن المسلم محاسب على كل ما يكتب ويعمل ويقول فلا تنفعه المتعة الفارغة ، ولا يتفق مع مبادئه القاء الكلام جزافا باسم التعبير عن لذات والترجمة عن شتى الاحاسيس ..

الفن والذات :

من هنا كان الفن يبعث فى الذات القوة ، ويجمل لها الأمانى والآمال ويبعث فيها الحرارة والعشق والنزوع الى الترقى ، ويحررها من أصفاد الأوهام ويخلصها من قيود التردد والخوف ،

مثل هذا الفن هو الذى يعشقه « اقبــال » ، ويدعو اليه فنانى عصره ، فالشعر اذا كان لازجاء الوقت والمتعة العابرة فلا كان ولا كانت أوزانه :

الدين والفـــن والتـــدبير والخـــطب
والشـــعر والنثـــر والتحـــرير والـــكتب
ان تحفظ « الذات » هــذى (١) فالحيــاة بها
أو لم تطـــق ذاك فهى السـحر والـكذب
كم أمة تحت تلك الشـــمس قد خـــزيت
اذ جانب « الذات » فيهــا الدين والأدب

حتى الغناء لابد أن يغذى الذات بعناصر القوة والبقاء ، فكيف نعزف ألحان التشبيب والغزل المائع ونحن فى معركة نحاول فيها أن تتمسك بأهداب حضارتنا وأمجادنا وديننا ؟..

أليس من العار والخجل أن تختلط قعقعات السلاح بمعسول العبارات والكلمات المثـيرة للحيوانية الكامنة فينا ؟.. لهــذا يصيح « اقبال » قائلا :

ان ســـرت فى اللحـــون دعوة موت
حـــرم النـــاى عنـــدنا والربابه

والرقص عند « اقبال » ليس كما يزعم الغربيون حركات بهلوانية وخصورا تلتف حولها سواعد ، وصدورا عارمة بالشهوة تلتقى

---

(١) يقصد الاشياء المذكورة فى البيت الاول

بصدور ، وابرازا للمفاتن واثارة للكامن من الغرائز .. فليس الرقص بصورته المادية الظاهرة ، بالذى يرضى اقبال لأنه خلاعة ومجون ، لكن للأرواح رقصا من نوع آخر ، ونشوة من نوع غريب ، قوامها ذات كاملة قوية تعرف الطريق الى الله ..

دع لأهل الغرب رقصا بجسوم
ان رقص الروح من ضرب الكليم (١)
فبهذا الرقص سلطان وفقر
وبذاك الرقص هم لا يريم

وما قاله « اقبال » فى الغناء والرقص .. قاله أيضا فى الموسيقى والتصوير وغيرهما ، فالفن يجب أن يجيش بما يسمو بالفطرة ، ويصقل ذات الانسان ، ويهذبها !..

« اقبال » والشعر :

اقبال شاعر فيلسوف ، فكيف التقى الشعر بالفلسفة فى صعيد واحد ؟ فقد زعموا أن الشعر خيال هائم لا يعرف القيود والبنود الا قليلا والفلسفة وقائع وحقائق لا خيال فى منهاجها بل منطق وتسلسل وايجاد مسببات ثم الانتهاء الى نتائج ..

الشعر لين وادع رقراق ، والفلسفة جامدة صلبة .. الشعر يسكر العواطف ، ويداعب القلوب ، ويهز الأرواح والفلسفة تتخذ طريقها الى العقل تحاوره وتداوره ، وتورثه الكد والتعب

(١) ضرب الكليم = معناه الاصلى هو ضرب « موسى » الحجر بعصاه ليفجر الماء من الصخر ..

ـ الشعر تحليق ونشوة ـ أما الفلسفة فهى الجدل والقضايا المردودة وغير المردودة ، والمزاعم المنقوضة وغير المنقوضة ؛ لكن مهلا !..

اذا كان الشعر كما يقولون فهو اذا فقاقيع لا تلبث أن تذهب جفاء ، واذا كان تحليقا هنا وهناك بلا هدف أو غاية باسم الخيال الخصب والشاعرية العظيمة ، فقد ظلموا الخيال ، وتجنوا على الشاعرية ..

وقد يقول قائل : فماذا يراد للشعر أن يكون ؟..

أيريدون أن يجعلوا منه هو الآخر فلسفة جامدة سقيمة الأوزان ضحلة الخيال .. عاجزة عن التحليق ؟..

فنجيب قائلين : ـ ان الصورة المرسومة ليست مجرد خطوط وألوان مختلطة بلا دلالات ، أو معان معينة ، والشعر كذلك تنتفى عنه صفته اذا كان قوافى وأوزانا مجردة وجموحا فى الخيال فحسب !..

فحياة الشعر فى فكرته السامية ، وجمال الأوزان فى معانيها الرائعة ، وحسن القصيدة فى دقتها ونظراتها الصادقة ، وخلود الانتاج وعظمته فى ترجمته الأمينة عن الوجدان ؛ ولذا يقول أحد مؤرخى « اقبال » :

... والحقيقة أن التفرقة بين الشعر الوجدانى والشعر الفلسفى ضئيلة ، لأن كليهما يعبر عن عواطف الشاعر وأحاسيسه ، وليست هناك قصيدة عظيمة دون أن تتضمن معانى وأفكارا أساسية ثم

انها لمقدرة عظيمة أن تثبت أفكارك فى ثوب شعري جميل !..

ويقول أحد أدباء الروس المعاصرين « روشكين » : « ان أعظم فن هو الذى ينقل للانسان أعظم عـدد ممكن من الأفكار بأى وسيلة من الوسائل !.. »

واقبال لم يرد للشعر أن يكون فلسفة محضة فننقله بذلك من رياض الزهر وهمسات النسائم وغفوة النجوم والأفلاك الى مجالس الجدل ، وصوامع السفسطة والخوض وراء الغيبيات التى لا طائل تحتها .. لكنه يريد للشعر أن يمتزج بألوان الفكر ، وصادق النظرات وحقائق الوجود وكنه الـكائنات وأن يناجى النسائم ويصقل العقول ويسطر وثائق التحرير والكفاح ويحكم فى قضايا الناس والمدنيات . ان « اقبالا » ينشد مزج الخيال برحيق الحقائق والتقاء العقليات مع العاطفيات !.. يقـول « كوليريج » الشاعر والناقد الانجليزى :

« لن يكون الانسان شاعرا كبيرا وناظما مجيدا دون أن يكون فى نفس الوقت فيلسوفا واعيا ومفكرا دقيقا ؛ لأن الشعر أريج علم الانسان وأفكاره وشعوره وعواطفه ولغته قاطبة !.. »

ولقد كان « اقبال » يعتقد هذا اعتقادا جازما ويرى أن الفن محاولات لفهم حقائق الحياة وابرازها للناس فى وضوح وجلاء ، وليس لمجرد الترفيه والتسلية والترف العقلى لازجاء الوقت .. لهذا قال اقبال :

الشـعر فيـه من الحيـاة رسـالة
أبـدية لا تقبـل التبـديلا

ان كان من جبـــريل فيـــه نغمـــة
أو كان فيـــه نفـــخ اسرافيـــلا

فالشعر عنده له غاية منوطة به ورسالة يسعى لتبليغها فى صدق واخلاص ، رسالة يحملها الشعر فى مختلف ألوانه سواء أكان شعرا رقيقا رزينا ، كأنغـام « جبريل » ، أو كان قويا ثائرا صـارخا ، كأصداء البعث والنشور التى ينفخها اسرافيل فى صوره ليصعق من فى السماوات والارض ثم ينفخ فيه أخرى ليوقظهم من جديد ..

والرسالة التى يقصدها « اقبال » ، رسالة عامة شاملة لا تحتجزها حدود الهند ، ولا تحتجـزها أرجاء آسيا ولا تنتشر أضـواؤها وآلاؤها على الشرق وحده بل هى للانسانية جميعها ، والى شتى أنواع البشر دون تفرقة من لون أو جنس أو لغة أو معتقدات ؛ لأنها رسالة لا تؤمن بحدود الزمان أو المكان ، هى رسالة الاسلام الذى منه اشتق فلسفته ، ومن أجله قال شعره ، وعلى هداه رسم لنفسه ، وللناس الخطة المثلى والسبيل السوى ..

ألـم يبعث لامتـكم نبى — يوحـدكم على نهج الـوئام
ومصحفكم وقبلتكم جميعـا — منـار للاخـوة والسـلام
فمالنهـار ألفتـكم تولى — وأمسيتم حيـارى فى الظلام

لهذا لن يستطيع أحد أن ينكر تلك الرسـالة الـكبيرة التى تضمنها شعر « اقبال » أو ينكر مدى انتشارها الواسع ، وشهرتها التى طبقت الآفاق ، وما ذلك الا لأنها رسالة عالمية كبرى استقبلها المفكرون والفلاسفة فى شتى أنحاء العالم بالبحث والنقد والتعليق .

و « اقبال » يرى أن شعره قد مر بثلاث مراحل :

أولا — دور النشأة والتكوين وفيه من سعة الخيال وابتكار المعانى وروح الحب والجمال وطلب العشق — فيه الشيء الكثير من ذلك مما كان يبشر بمستقبل باهر — لكنه كان خاليا من دقة الفكر والتعمق، وكانت تتجلى فيه الحيرة والقلق وهذا أمر طبيعى لشاب شاعرى المزاج متيقظ الحس يؤلمه ما وصل اليه حال مواطنيه من البؤس والشقاء !..

وتنتهى هذه الفترة سنة ١٩٠٥ م أى فى السنة التى وصل فيها شاعرنا الى أوروبا ؛ لينهل من مواردها ، ويقتطف من رياض فلسفتها وفنها ، وهكذا يبدأ الدور الثانى ، الذى استغرق من سنة ١٩٠٥ م الى ١٩٠٨ م ولقد كان الشاعر فيه قليل الانتاج بعد أن استحوذت عليه الأبحاث العلمية والنظريات الحديثة ، والاشواط الفكرية الطويلة ، لتى قطعها الاوربيون ، حتى أوشك أن يودع الشعر — كما قلنا — الى الأبد لولا أستاذه « توماس أرنولد » !..

ولقد كان أثر أوربا باديا فى شعره فى هذه الفترة فاتسعت أفكاره، وعلت علوا قصرت عنه اللغة « الأوردية » التى كان يكتب بها شعره فى بادىء الامر ، فاتخذ الفارسية لغة ثانية لنظمه .

وكان الدور الثالث والاخير بعد عودة الشاعر من أوروبا حتى توفاه الله وفيه بدا شعره عميقا مكتملا ، واضحت المعالم جلية وحلت السكينة والامن والطمأنينة مكان الحيرة والقلق فى نفس الشاعر !..

فأخذ شعره يخطو خطوات سريعة منتظمة نحو الكمال بقدم ثابتة ويقين لا يتزعزع ولا يتقلقل وتحول من سلطان المحبة والجمال الى سلطان الحكمة والكمال ، لانهما مصدر القوة ومصدر المحبة ومصدر الجمال ـ وكتب منظومتيه « أسرار خودى » و « رموز بى خودى » تعرض فيهما لصفات الرجل المؤمن والتربية التى يجب أن يأخذ بها نفسه ، والوسائل والغايات التى يجب أن يعتصم بها وتعرض فيهما أيضا للدولة الاسلامية ـ وكيف تقوم ـ وعلى أى أساس تنشأ وعوامل قوتها وضعفها ـ وسر تقدمها وتأخرها ، ورسالتها التى يجب أن تحملها الى البشر وعن ماضيها الزاخر وسر عظمته وعن رجالاتها وواجباتها وكل ما يتعلق بها ..

هذه عجالة سريعة عن المراحل التى مر بها شعر « اقبال » ولا نريد أن نستطرد فى ذلك ، لاننا نقصد زاوية خاصة فى شعر « اقبال » ـ كما أسلفنا ـ ونعنى بها موكب البعث الذى يضرب بأقدامه الارض ، على وقع الانغام القوية الفتية التى يعزفها « اقبال » !..

الحرية فى شعر اقبال :

« اقبال » يؤمن بالحرية ويعشقها عشقا ملك عليه فؤاده ، ويعجبه قول « عمر بن الخطاب » :

« كيف استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟.. »

فالحرية عند « اقبال » أساس الوجود ونعمة الحياة وسر البقاء ، أو قل هى الروح الذى يبعث أنفاس الحيوية ، ودم النماء فى كيان

الافراد والامم .. لهذا كان يعتقد اعتقادا جازما بصحة مبدأ « الاختيار » ولا يرضيه مطلقا قول القائلين « بالجبرية » ويعتقد أيضا ان « الايمان بين الجبر والاختيار » .. « حديث نبوى »

ان الانسان بتربية « ذاته » وتقويتها والاهتمام بها حسب الفلسفة التى اعتنقها « اقبال » والتى منبعها الشريعة الغراء ، يتدرج من الجبر الى الاختيار فاذا ما وصل الى المرحلة الثالثة فى فلسفة « اقبال » فقد أصبح كامل الحرية ، مطلق الاختيار ، جديرا بالاستاذية والسيطرة وقيادة العالم ، وأهلا للقب «الفقير» الذى طوع يمينه متاع الدنيا الذى يزهد فيه .

فالحرية اذا صفة غالية هامة ، عزيزة المنال ، لا تكتب كاملة الا لمن بلغ الغاية ، وأحسن ا لسير فى طريق تنمية الذات وتربيتها ، وليس معنى ذلك حرمان كل من لم يعتنق هذه الفلسفة من حريته ، وانما اقبال قد قرن الحرية المطلقة بالرجل الكامل التربية ، القوى الذات ، والجدير بخلافة الله فى الارض أما باقى الافراد فان مقدار الحرية يتفاوت بحسب استعدادهم لها ، وفهمهم لمدلولها ، فلقد سخر اقبال مر السخرية من هؤلاء الذين فهموا قضية الحرية فهما أبتر ، وأخذوها مأخذا ضعيفا ، فالمسلم الساذج يظن أنه فى حرية ما دام يحظى بالشعائر العبادية كالصلاة والصوم وما عدا ذلك من حرية التصرف فى أمر بلاده ، وشئون سياستها فلا عليه :

للشيخ فى الهنـــد أجيـزت ســجدة
فخـــال ذا الاســلام حــرا ســيدا

ومثل هذا المسلم قد فسر « القرآن » حسب هواه وضعفه ، وجعله ذريعة لترك المساعى والكفاح ، مع أن « القرآن » فى الماضى كان الاداة التى ملك بها أجدادنا الدنيا :

من القــرآن قــد تركوا المســاعى
وبالقــرآن قد ملــكوا الثــريا
تبــدلت الضمــائر فى اســار (١)
فمــا كرهــوه صــار لهم رضــيا

وفى قصيدته « رجال الله » يصف الرجل الحر وصفا دقيقا ، فهو الرجل الذى يسدد الضربات ويجيدها ، والذى تجتمع فيه عظمة الملك وتواضع الصوفى وأخلاقه ، وغزارة علم الفقيه !.. أى أنه ذو « تاج » و « خرقة » و « قباء » .. فالرجل الحر سر النور والحياة ، فطرته مستقيمة تتأبى على الشرور والآثام ، وتنأى بنفسها عن مواطن الضلال والمروق والكفران !..

انما الحــر من يجيــد ضرابا — لا الذى حربه تدور هــراء
وسجايا الاحــرار تجمع تاجا — ذا سناء ، وخــرقة وقبــاء
من خفايا ترابهم أخذ الدهــر — شرارا فصــاغ منــه ذكاء (٢)
فطــرة حــرة تعــاف الدنايا — من طواف الاصنام عاشت براء

---

(١) العبودية (٢) الشمس

ويستطرد « اقبال » فى تغنيه بالحرية ، وتمجيده لها فاذا ما وازى بين الانسان وغير الانسان جعل الحرية هى الصفة البارزة ، والسمة الواضحة فى البشر ، فالافلاك فى سموها وعلو منزلتها مقهورة مشلولة لا حرية لها :

أين منك الافلاك ؟ انك حر   وهى قهر ذهابها والاياب

وانتقل معى الى تلك الروعة حينما يصور ماهية الحياة عند الاحرار وعند العبيد ، فعيش العبيد خراء وضعة لا معنى فيه للحياة ، أيام متخاذلة بطيئة تحمل فى طياتها الملل والخور والجبن ، أما الاحرار فحياتهم تشويق واشراق ومجالات للسبق والتقدم والابداع ، حتى لكأن اللحظة الواحدة من حياة أحد الاحرار تعادل عاما كاملا من حياة الاذلاء الواهنين ـ لما فى تلك اللحظة من عمل وحيوية ، فحياة الحر مجموعة من الحيوات المليئة ، وحياة العبيد خرافات وأوهام وتطفل وتقاعس ، حتى أفكارهم كالجيفة النتنة المنفرة :

ولحظة الحر عام للذليل فكم   كم تبطىء السير بالعبدان أوقات
ولحظة الحر من خلد رسالته   ولحظة العبد من موت فجاءات
وفكرة الحر من حق منورة   وفكرة العبد تغشاها الخرافات
كرامة حية بالحر ماثلة   والعبد من غيره تأتى الكرامات

والعبد قد تغتفر له الفلتات ، ولا يلتفت الى تراخيه ونومه وركونه للذلة ، أما الحر فان له على الارض رسالة تحرمه النوم ، وتسلبه الراحة والامن لان مبادئه وأهدافه تحتاج الى الكفاح والصبر

« ليس للحر على الارض جمام (١) .

ويهتف اقبال برجال الفن أن يتحرروا من أسار الطبيعة وألا يقيدوا أنفسهم وفنهم .. بأشكالها المجردة ، ومظاهرها المعروفة ــ بل ينبغى أن يظهر كل منهم ذاته ومشاعره فى كل ما ينتج ويخرج الى الانام من معجزات فنية ، لان الروح المنطلقة المتحررة فيهـا فن حر ، والروح المقيدة العاجزة فنها عبد ذليل :

تعالى ضميرك عن كل لون ... فعفت من اللون كل القيود
اذا أضنت الروح آلام رق ... ففنك عبد رهين سجود
وان عرفت قدرها كنت حقـا ... على الجن والانس رب الوجود

وهناك نوع من الادب يدعى « أدب الاستعمار » يتزعمه فئة من المفكرين عاشوا فى كنف الاستعمار وطال عليهم الامد فأولوا المثل العليا ؛ وحوروا فيهـا ، كى يفلسفوا خورهم ، ويغطـوا انحرافهم وفى نظر اقبال ان هـذا النوع من الفن لا يستحق أن يسمى فنا ، ما دام قد انتفت عنه صفة الخلق والتحرر والكرامة :

ليس يخلو زمان شعب ذليل ... من عليم وشـاعر وحـكيم
فرقتهم مذاهب القـول لكن ... جمع الآراء مقصد فى الصميم
« علموا الليث جفلة الظبى وامحـوا ... قصص الاسد فى الحـديث القديم (٢)
همهم غبطـة الرقيـق برق ... كل تأويلهم خـداع عليم

وهذا فى الواقع تصوير دقيق لحقيقة الفكر فى الامم المغلوبة على

---

(١) راحة

(٢) غايةهؤلاء المفكرين انيبذروا بذورالضعفوالوهنفىالقلوب !..

أمرها بل هو صورة نفسية صادقة للأمم التى ران عليها التحكم والتسلط ردحا كبيرا من الزمن ؛ حتى لكأنما هذه الشعوب قد مسخت وخلقت خلقا جديدا ، فتبدلت نظرتها وحكمها على الاشياء تبدلا يدعو للاستغراب .. والدهشة .

وهناك أمر هام من الخطورة بمكان ..

فالحرية حق مقدس لكل أمة ولكل فرد من أبنائها ..

لكن ، أهى حرية التمادى والمغالاة وعدم المبالاة التى لا تكترث بشىء ولا تعبأ بشىء فلا يقيدها حق ، أو يحزنها باطل ؟.. فهل تفعل الدول الكبرى القوية ما يحلو لها ؟.. وهل تلتهم الامم الصغيرة كاللقمة السائغة متحررة فى عملها ذاك من واجب الانسانية ، وعاطفة الاخوة غير عابئة بمثل أو عهود أو مواثيق ؟.. ان ذلك وان كان حرية بالنسبة للقوى فهى ولا شك قهر واذلال للضعفاء ، انما الحرية الحقة هى تلك التى لا تتعارض مع مصلحة الآخرين وحقهم فى الحياة الحرة الشريفة ، فاذا ما انحسر ظل الحرية عن بلد ليبسط رواقه على بلد آخر ، فانى لا اسمى ذلك حرية بل هو عين اللصوصية والجشع . مثل هذا الشعب القوى يستمد حريته من جبروته الاعمى ، لكنه فى الحقيقة ليس حرا لأنه عبد هواه ، وعبد نهمه وجشعه ، وعبد نفسه الجامحة المتشردة التى لا تعترف بالحرية الا لنفسها .

أقول لقد كان « اقبال » يفهم الحرية بمعناها الاسلامى الجامع ، وبمدلولها المطلق الذى لا يعرف أسود ولا أصفر ، ولا يميز بين أحمر وأبيض ، لان الجميع بشر ، وأناس من حقهم أن يستمتعوا

بالحرية ، الحرية التى لا تتعارض مع حق الغير ، ولا تصطدم بالمصالح المشروعة للآخرين فلا تكون سلبا هنا وايجابا هناك . فالحرية الحقة كالشمس المشرقة التى تطل على هام الجبل ، وتنحدر على السفوح ، ثم تهبط الى الوديان والاخاديد ، فتتسرب الى الكوخ المتداعى ، وتتدفق الى القصر المنيف ..

فالحرية بين العالم وهم وزعم وتجارة ..

والحرية فى الفن .. ماذا بصددها ؟..

أيكتب الشاعر مثلا كل ما يريد ، ويعبر عن كل ما يخطر بباله ؟..

أنا لا أعرف كائنا يعمل كل ما يحلو له .. ويعبر عن كل ما يدرج فى خياله الا كائنا واحدا فقط ، واعنى به المجنون الذى تجرد من نعمة العقل ، فلا لوم عليه ولا عتاب ، لكن المهم ألا يترك مثل هذا المجنون ليدمر ويخرب حسب ما يهوى فماذا يحدث لو ترك على هواه ؟.. لا شىء الا أن « مجنونا ولج مصنع الزجاج » على حد تعبير « اقبال » ، فلن يترك آنية الا وحطمها ، ولا نظاما الا وعبث به .

ماذا يحدث اذا كتب الاديب انتاجا يتنافى مع الخلق ، ويحرض على الرذائل ويقضى على الفضائل ؟.. ماذا يحدث اذا أثار الغرائز وزين لها الطريق المعوج ، وزوق لها الأمانى الفارغة الماجنة ؟.. وماذا يحدث لو حمل معول هدمه وانقض على الامجاد ، والمثل الخالدة ليزيلها ويبنى على أنقاضها الرياء والكذب ، والنصب الجوفاء التى أملاها عليه خياله السقيم وفكره العقيم ، وشذوذه المزرى ، مستعملا مع ذلك عجيب الحيلة والاسلوب الملتوى

والتلاعب بعواطف الجماهير ؟..

ان « اقبالا » يؤمن بحرية العقلاء البانين وليس بحرية الجهلاء المجانين الذين لا يؤمن جانبهم اذا ما دخلوا « مصانع الزجاج » .. « اقبال » يؤمن بقضية الحرية على أن تجعل من نفسك الطيبة وذاتك المترفعة النزيهة قاضيا عدلا ، فى تلك القضية الشائكة ، ولابد للقاضى من استعداد خاص ، وتربية معينة حتى يصيب الحق اذا حكم ، ويحسن تسديد الرمية إذا رمى !..

وقد يستغل مستغل هذا الرأى فيحد من الحرية ويضع لها القيود ، ويثقلها بالاغلال والدعاوى الكاذبة ، ويقيم الحواجز والموانع فى سبيلها ظلما وعدوانا ، مثل هذا المستغل سنترك أمره للحرية نفسها ، لأنها ند قوى صارم ولها أعوان وجنود ، ليس من السهل أن ينهزموا أمام الحاقدين والادعياء !..

سنترك أمره للحرية كى توقع عليه العقاب وتثأر منه ، وتجعله عبرة لغيره ممن تحدثه نفسه بالاعتداء عليها أو حتى مجرد المساس بحرمتها مساسا طفيفا !..

تلك هى حقيقة الحرية فى رأى « اقبال » المسلم !..

ولا يضير الحقيقة أن يفترى عليها المفترون ، ويتجنى المتجنون ، ولا يضير الحقيقة ان يستغلها احدهم شمالا ، ويستغلها الآخر يمينا ، لأنها هى نفسها تعرف الطريق وتسير فيه بلا لف أو دوران ، وتندفع فيه غير عابئة بذوى الكيد والمؤامرات ، لأن الحقيقة قوية خالدة لا تموت ..

فللحرية آداب يجب أن تراعى ..
ولها حمى يجب أن يظل مصونا ..
ولها امناء وحراس ، من العيب والجور أن يعتدى عليهم أو يحقروا ..
ولها ظل ظليل ، وروضة مونقة يجب ألا تدنس بالجيفة والأقذار ..
ولها منطق سلس مستقيم يجب ألا يوصم بالعوج والالتواء ..
ولها رسالة فوق مستوى التهم والشبهات يجب أن تحترم وتحمل الى الناس ناصعة شفافة منزهة عن الاهواء والأغراض ..
وصدق « اقبال » اذ يقول :

بحرية الافكار هلك جماعة — اذا لم يكن فيها تدبر عالم
فحرية الافكار فى رأس جاهل — طريق لرد الناس مثل البهائم

بين التقليد والتجديد :

حياة الفرد ــ كما قلنا فى فلسفة « اقبال » ، تطور دائم ، ورقى مستمر ، وهى فى حاجة دائما الى الانشاء والتجديد ، وبالتالى فى حاجة الى المواءمة والتوافق بين ما يجد وما يبلى ، فالعلاقة بين الجديد والقديم علاقة أبدية ذات فائدة ..

أما الاستمساك بالقديم وتأليهه وتقديسه ، والاصرار على أنه هو الغاية التى ما بعدها غاية ، والعظمة التى دونها كل عظمة رغم ما قد يبدو فيه من عيوب ، ورغم ما يحتاجه من اصلاح واضافة ، كل هذا يعتبره اقبال جمودا ورجعية ، وتعطيلا للمواهب الانسانية واعاقة لموكب الحياة المتقدمة المتطورة ، وتصديا لسنن الكون

وناموس الوجود ، وطبيعة الاسلام الذى يدين به « اقبال » تأبى هذا وتنكره ؛ لانه دين الفطرة السليمة ودين العموم والشمول ، ودين السعة والاستطراد فى مدارج الخير ، ودين التوثب والرقى متى انعقدت النية الطيبة ، وبان وجه المنفعة ، ومتى كان التوافق جليا بين ما نؤمن به وبين ما استجد !..

لهذا صاح « اقبال » فى جموع المفكرين الجامدين كى يتحرروا من اسار القديم ويحطموا وثاق التقليد الأعمى ، ويقدموا ما عندهم من فن جليل وانتاج سليم بطريقة مرضية محببة الى النفوس وفى ثوب أنيق جميل يستثير الشوق ، ويجبر على الاحترام والتقدير ، ويلائم ظروف العصر ، ونهضة الحياة وخطاها المتتابعة نحو المجد !..

ومن ناحية أخرى لا يترك « اقبال » الحبل على الغارب لكل ثائر على القديم منكر له ، بل يرى المفيد اللائق ، ويلبسه الزى المناسب ثم يبرزه متألقا جذابا ، أو بمعنى أصح يبعثه بعثا جديدا ، فتخاله مبتكرا نابعا لاول مرة ، لا أثر للبلى عليه ، لهذا ينكر « اقبال » أسلوب أولئك الذين اذا دعوا للتجديد حطموا كل قديم ووصفوه بالفساد وعدم الصلاحية ، ودعوا لدفنه فى قاعات المتاحف ، وتركه فى ذمة التاريخ ..

ان « اقبالا » ثائر لكنه عاقل فى ثورته ..

ومتحرر لكنه لبق فى تحرره .

ومجدد لكنه لا يجحد فضل قديمه ولا يتنكر له ، بل يفحصه ويمحصه ويأخذ منه ما يريد وما تريد سنن الحياة ..

و « اقبال » فيلسوف ، والفيلسوف متصف باليقظة والحرص ، وبعد النظر ، انه يقول لهؤلاء المتسابقين فى جنون الى منهل كل جديد ، رويدكم تمهلوا ، وتبينوا ، ليس كل جديد جديرا بالاخذ معصوما من العيوب فلكم أيها الناس بصائر وأبصار فضعوا كل ما يأتيكم تحت « مجهر » الفحص والتأكد ، فاذا آمنتم بجدواه ، وتبين لكم سلامته وميزاته ، وعدم منافاته لخلقكم ومعتقداتكم ، فاقبلوا عليه وأنتم واثقون مطمئنون ، كى تسعدوا وتسعد أجيالكم ، ليس كل قديم مقضيا عليه بالفشل والنبذ ، كما أن كل جديد ليس أهلا للايمان به والجرى وراءه !..

والتقليد فى نظره مسخ لشخصية الانسان ، وطغيان على ذاته واهدار لفرديته ، فالمقلد ، كما يقولون يفنى ويذوب فى الشخصية التى يقلدها ، ويتبع سبيلها ، ثم انه لن يصل الى الدرجة التى وصلت اليها هذه الشخصية مهما كان اتقانه للتقليد ..

جدة الدنيا بتجديد الفكر   ليست الدنيا بصخر أو مدر

ثم يتجه « اقبال » الى بعض مصلحى الشرق ذوى الأفكار الخادعة التى تشبه فن « السامرى » بين قوم « موسى » ، ويقول لهم انكم لم تستمسكوا بالسنن القديمة القويمة ، ولم تكلفوا أنفسكم مشقة الأخذ بالسنن الحديثة التى ثبت نفعها وجديتها ..

يئست فلا أرجى فى أناس   لهم فن كفن السامرى
سقاة فى ربوع الشرق طافوا   على الندماء بالكأس الخلى
سحاب ما هوى برقا قديما   وليس لديه من برق فتى

ان الشعوب التى لا تجد جديدا تركن اليه وتفيء الى ظله ، ولا تجد قديما تتذرع به وتمشى على منهاجه الصالح ، لا شك أن مثل هذه الشعوب تقع فى ظلام الحيرة القاتلة وتتردى فى وهاد الشك والقلق ، اللذين يعوقان تقدمها وسيرها فى مواكب النشوء والارتقاء..

و « اقبال » يقول ان عناصر النشوء والتطور كامنة فى خلقنا وطباعنا فما علينا الا أن نعرفها ، فنثيرها ثم نوجهها التوجيه المفروض لها ، وليست هذه طبيعة الانسان وحده ، فالأغصان فى نمو وسمو دائم نحو الفضاء ، والحبة المدفونة فى ظلمة التربة فيها مثل تلك الطاقة التقدمية النزاعة الى الصعود ..

على كل غصن تبين أن النبا ت مشوق لرحب الفضاء
فما قر فى ظلمة الترب حب جنون النشوء به والنماء
فلا تبغ فى فطرة ترك سعى فما ذاك معنى الرضا بالقضاء
لاهل النماء فضاء فسيح
وما ضاق ملك الاله ، فسيحوا

ولا شك أن الخضوع التام للتقليد بداية الانهيار ، وعلامة الموت :

كيف تجلى حقائق لعيون عميت بالخضوع والتقليد
كيف يحيى الفرنج عربا وفرسا بفنون تسير نحو اللحود

ويعتقد « اقبال » أن الشرق والغرب كلا منهما يدور فى دائرة ضيقة مغلقة من صنعه ، وما زال فى شراك القديم ، ولعل متسائلا يقول :

هل رجال السياسة الغربيون مثلا ما زالوا فى أسر القديم وهم الذين طبقت شهرتهم الآفاق لبراعتهم فى الدهاء ، وقوة خططهم فى المناورات والمراوغات والسيطرة ، وكثرة تأليفهم فى العلوم السياسية والاقتصادية والقانونية ؟.. والحقيقة أن « اقبالا » لا يعنى كثيرا بمجرد المظاهر والصور ، وانما الذى يهمه روح تلك السياسة ونتائجها ، انه يعتقد أن السياسة لم تتجدد ولم تتغير ، اللهم الا أنهم قننوها وبندوها فى قوانين وبنود ، ورسموا لها القواعد ، وجعلوها علما يدرس ، فما روح تلك السياسة اذن ؟.. ان روحها يظهر واضحا جليا فى سياسة « تشرشل » ، وغرور « هتلر » ، وتهور « موسولينى » ، وأحلام « نابليون » ، وكتابات « مكيافيللى » ، وارهاب « ستالين » ، ومن قبل فى أطماع الرومان وقياصرتهم !..

ويوجز اقبال رأيه فى الأدب الحديث بقوله انه يجب أن يكون مزيجا من نسمات العشق وسكبات العقل المؤمن ، وينفر من التقليد :

رأيت العشق يقفو اليوم نهجا ... من العقل الالهى القويم
وليس يريق ماء الوجه ذلا ... على أعتاب محبوب غريم
محا التقليد فى روح قديم ... وأحيا الروح فى جسد قديم

ويقول محذرا من التقليد فى مكان آخر :

أمن « ذات » غيرك تعمر قلبا ... معاذ الاله ترى أين «ذاتك»؟..
كمال المحاكاة انك تفنى ... فيكفيك هم الحياة مماتك

وحينما يتكلم « اقبال » عن الرجل العظيم يقول انه وان كان قد نشأ فى زمان سيطر فيه التقليد على كل شيء ، الا أنه نجا بنفسه من هذه الوصمة نظرا لما فى طبعه من حب للخلق والتجديد :

نشأته ظلمة التقليد بالناس تحيق
غير أن الطبع بالابداع والخلق خليق
مثل شمس الصبح . فكر فيه نور وبريق
لفظه حر يسير لكن المعنى دقيق

ان البعد عن التقليد الأعمى طريق موفق ، يثير فى الشعوب معنى العزة والاباء والاعتداد بالنفس ، والاعتماد عليها ، فقد استطاع اقبال أن يذكر أمته بأنها أهل للخلق والابتكار ، لذلك كان لا يفتأ يذكر الشعب بآبائه الامجاد الافاضل ، الذين حملوا مشعل الهداية والتحرر والترقى الى العالمين فى الشرق والغرب :

بلغت نهاية كل أرض خيلنا — وكأن أبحرها رمال البيد
فى محفل الأكوان كان هلالنا — بالنصر أوضح من هلال العيد
فى كل موقعة رفعنا راية — للمجد تعلن آية التوحيد
أمم البرايا لم تكن من قبلنا — الا عبيدا فى اسار عبيد
بلغت بنا الاجيال حرياتها — من بعد أصفاد وذل وقيود

الطبيعة فى شعر « اقبال » :

ان نظرة الحكيم الحق الى الأشياء نظرة عميقة فاحصة ، ولذلك فهى تتعدى المظاهر والاشكال الى ما وراءها ، ولا يكفيها السرد السطحى والوصف المجرد ، لأن هذا شيء يراه كل انسان ومن

هنا كان عمل الفنان الحق أبعد مرمى وأدق غاية من سائر المشاهدين لمناظر الطبيعة ، وصورها المتعددة !..

فمثلا أنا وأنت نرى أمواج البحر الثائرة ، فنقول انها هائجة مضطربة ، أما « اقبـــال » فلا يكتفى بذلك الوصف بل يفلسفها ويقول : ان ثورة الأمواج صدى لما يعتمل فى نفسى من حركة وفوران وحرقة وتوقان الى السير فى طريق الحرية والقوة والكمال ؛ لأن « اقبالا » يؤمن بأن على الفنان أن يسبغ ذاته على الطبيعة ، ويغرقها فى روحه ، فيجعلها لا تبدى لنا الا وجه الحقيقة ، التى يؤمن بها ، ولا تظهر لنا الا قوة المعانى التى يعتنقها !..

كان « اقبال » يقدم لك بعض الصـــور التى يخيل اليك أنك كنت تكنها فى نفسك ، لكنك لم تكن تدرى كيف تبرزها وتخرجها ، ثم جاء اقبال وقدمها لك فريدة مؤثرة موفقة ، و « اقبال » حين يقدم قضاياه الفلسفية وأفكاره القوية لا يقذف بها اليك بلاحواش أو مقدمات ، لكنه يزفها اليك زفافا شائقا ، شأن الرجل الخبير المتمكن من فنه ؛ كما أنه ينتزع الدليل القاطع مما يقع تحت بصرك من الطبيعة ومشاهدها المختلفة ..

وكان « اقبال » ينكر على أولئك المتصوفة الذين يهيمون فيما وراء الطبيعة ويذكرهم أن دنيانا أجدر بالنظر والالتفات لما فيها من حوادث وأحداث ، والا فمعنى انصرافنا عن دنيانا هو ضياعنا ، كالإمس الدابر !..

ان حب الدنيا وكراهيـــة الموت كان من أهم الأمـــراض التى

انتابت الشرقيين ، « واقبال » ، حين معالجته لهـذا الداء يذكر المسلمين بأن الدنيا مصيرها الى زوال ، وأنه لابد من الموت الذى بعده الخلود الأبدى ، فاذا كان الموت قدرا محتوما ففيم الخوف ، وعلام الجبن ؟؟

تحت نور الأفلاك عيش جميل — وأرى النور ينطفى ويحـول
وعلى كاهل المساء ترى للشمـ — ـس نعشا بكى عليـه الأصيل
فى سنى البدر للكواكب أكفا — ن ، توارى بها الشعاع النحيل
ليس زاد المسافرين سوى الخـ — ـوف من الموت والحياة رحيل

ثم ما هى الحياة ؟..

انها صنم يعبده هؤلاء الخائفون المستسلمون ..

أو هى غانية لعوب ماكرة قد أسرتهم بنظراتها المنكسرة الغاوية وكان الواجب أن يأسروها أو كما يقول اقبال : انها كطائر رخيم الصوت ، جميل الأداء ، ملأ الروض بهجة ومتعة وأثار النشوة فى جيد الازهار فرقصت وماست ، فما كان أعذب اللحن وأروعه ، لكنه كان كالحلم الذى يداعب أجفان النائم حينما يطوف به الكرى ، ثم ينجاب الحلم ولا يتبقى شىء الا مرارة الذكرى والحسرة على الضائع ، ثم يقول :

لا يعلم الانسان كيف أتى الى — دنيا المتاعب أو متى يترحـل
ما نحن فى الأكوان غير حديقة — أزهارها عمـا قليـل تذبل
يأيها الحرص ابك فى الدنيا دما — دنياك ليس بهـا لحى منزل

ويقول فى مكان آخر ، لؤكد أن الموت ليس معناه الفناء ولكنه

انتقال الى عالم آخر فيه الخلود والبقاء الأزلى :

كل كون أبلته أيدى الليالى أحرقـوه ليصنعوه جـديدا
يهدم البيت بعد حين ليبنى منزلا عاليـا وقصرا مشـيدا

ويقول :

تغرب النفس ثم يشرق صبح فيـه للنفس بالخلود ارتقاء

فهو حين يذكر الموت لا يقصد بذلك أن يثنى القلوب عن الكفاح والصراع ، ويملأ النفس بالتشـاؤم وعدم الاكتراث ، ويحطم لديهـا قصـور الامل ، لكنه أراد أن يقـول لهم : أقدموا ولا تهابوا الموت فمن الضعف والضلال أن تهابوا الموت فى سبيل خلودكم وعزتكم وحريتكم ، وهو لابد ملاقيكم وان طال الأجل

والآن أتدرى لماذا تشـدو الطيور فى رقة وجمـال وعاطفـة جياشة ؟..

ان هنالك سببا لا يخطر على بالك ، والسحب وهى تندفع وتقطع المسافات الواسعة ثم يفيض ماؤها ليروى الظمأ ، ويرطب اليباب والفقر ، ما السبب فى كل ذلك ؟.. انه سبب لا يبرق فى مخيلتك أبدا !.. والموج فى علوه واصطخابه وطغيانه وعلوه ، ما الذى يثير فيه تلك الطاقة ، ويحرك بين جنبيه تلك النشوة العارمة ؟..

يجيب « اقبال » على حيرتك وتساؤلك بأن سر هذا كله هـو الهجران !.. أجل الهجران ذلك الذى يثير الرغبـة والعشق ، ويؤجج الحنين ويدفع على العمل ، ويزوق المنى ، والمعروف أنه فى القرب راحة ، وفى الهجر مشقة وألم ، لكن « اقبالا » يحول

تلك المشقة وهذا الالم الى دافع قوى من دوافع القوة والحيوية والكفاح :

الوصل فى الحب غال وقيمة الهجر أغلى
الوصل حلو ولكن عواقب الهجر أحلى
فى القرب موت الامانى والعيش فيه فناء
والبعد فيه حياة يذكى ضياها الرجاء
ان اتقاد الامانى وحسن شدو الطيور
وضجة الخلق سعيا فى العالم المعمور
وانسحب حين تراها تسقى الربى واليباب
والموج فى البحر يعلو حتى يفوق الهضاب
وكل ما فى البرايا من روعة وجلال
لولا يد الهجر فيه لم يزدهر بالجمال

ثم انظر لتلك الصورة الحية للكائنات ، عندما تفزع من نومها ، على ضجيج الغارة التى تشنها جحافل النور على فلول الظلام الهاربة المذعورة ، ثم يعم الصباح أرجاء الوجود ، فتتثاءب الحياة وتتمطى ، وتنفض عن جسدها رداء النوم والقعود وتستقبل موكب الشمس بما هى أهل له من استعداد ، وبما هى جديرة به من لقاء :

حينما يسفر الصباح نديا ناصعا فى مواكب الاشراق
يغسل النور فى المشارق أد ران الدياجى عن حلة الآفاق
ويطير الكرى وينتبه العشـ ب وتصحو عزائم الكائنات

ويهب الأحياء فى البر والبحـ ـر ليستقبلوا عروس الحيـاة
واذا كان للخـلائق ناموس يرينا الصـباح بعد المسـاء
فكذا تذهب الحيـاة ولكن بعد ليل الحمام صبح البقـاء

ولقد كانت البيئة الجغرافية التى عاش فيها « اقبال » معينـا لا ينضب لشعره وزادا لا ينفد لأفكاره المتواصلة ، فقد تقلب بين الجبال والوديان والشعاب ، ورأى الانهار تنحدر فوق السفوح تسطر حكمة الابد ، وتتبعثر المياه لتتجمع مرة ثانية ، أو تغوص فى الرمال ، لتلتقى بعد ذلك فى مجراها من جديد حاملة الرسالة السرمدية ، وهى أن الحياة فراق ولقاء ، وصراع وجلاد ، وجلال وجمال ، وملتقى الأشتات !..

فلنبدأ هذه الرحلة الخالدة مع اقبال ؛ لأنها وان كانت رحلة النهر من منبعه الى مصبه الا أنها رحلة الانسان من البداية حتى النهاية ، ولانها قصة محسوسة ملموسة لا نبرح نرمقها لاهين ناسين غير مدققين فيها :

من رءوس الجبال ينحدر النهر طروب الامواج عذب الاغانى
تنقل الطـير عنه بين الروابى ما تبث الغصـون من ألحان
كخدور الحور الحسـان تراه فى صـفاء البنور حلو الخرير
ثم تمضى تلك المـياه ضـياعا فى تلال منشـورة وصـخور
قطـرات من النمـير طوتهـا فى ثنـايا الرمال أيدى الفراق
ثم تجرى بها الينابيع فى الأرض فتحظى بعـد النوى بالتلاق
فاذا النهر بعد ذلك فى مجـرا ه يحيى الزهـور والأعشـابا

فضـــة تنبت الزمــرد فى الا رض وتسقى النخيل والاعنابا
وحياة الانسان نهر ســما وى توالت بســيره الأقــدار
كلمــا غاض ماؤه عاد فيـــا ضــا ، فمــا ينقضى له تيــار

وهكذا تتآزر آحاد الطبيعة ، ويتعاون أفرادها مع محافظة كل كائن على صفته ـ أو ذاته الخاصة ـ فالطيور تأخــذ شدوها ، وتتعلم لحنها من الخفقات والانغام التى تصدر عن النهر ، والماء يسرى كالشرايين أو كالفضة الذائبة بين طبقات الأرض ، باحثا عن الجذور والبذور ، كيما يدفع فيها سر الحياة ، ويذيع فيها روح البقاء والنماء !..

كان « اقبال » مثل الصيدلى الذى يحضر الدواء الشافى ويجده مر المذاق غيرمستساغ الطعم لا يقبله المريض ،لكن هذا الصيدلى البارع يفكر فى الأمر ، ويقــدح زناد فكره ويجــرى التجــارب العديدة حتى يتمكن من اضافة مادة معينة ، جميلة الطعم والرائحة، الى الدواء المر ، فتحجب مرارته ، وتجعله مستساغا مقبولا ، دون أن تنقص من فائدته للمريض شيئا !..

كان هذا شأن « اقبال » فى أدائه لأفكاره الناضجة ، وعرضه لفلسفته الخالدة ، فلسفة البعث والتحرر والكمال !..

السخرية فى شعر (اقبال) :

ان « اقبالا » المسلم فى عقيــدته وعمله وأخلاقه انســان عف اللسان ، شريف المقصد والنوايا ، ويعلم تماما أن الله يقول :
« يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا

منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب » ..

فاذا كان الامر كذلك فكيف يسخر « اقبال » اذن ؟..

لم تكن سخرية « اقبال » الا لونا من التأديب والتهذيب ، أو اشارة الى وضع شائن يجب أن يباد ، واعتقاد أحمق ، يجب أن يهال عليه التراب ، وربما كانت سخريته نوعا من المزاح ، ذلك المزاح الذى يصف المؤرخ به النبى (ص) حينما قال عنه : ــ « كان يمزح ولا يقول الا حقا » ..

وليست السخرية المحمودة ــ ان صح أن تسمى كذلك ــ شيئا مبتذلا هينا يستطيع كل لسن أن يأتيه ، لكنها فن ودراية وعبقرية ، فترى فى اللمحة العابرة معانى كثيرة ، وفى الاشارة السريعة مغزى عميق الغور بعيد المقصد ، وفى البيت الواحد أو البيتين ايجازا متقنا بليغا يحمل فى تركيبه الحكمة البعيدة النظر !..

بهذه الطريقة البارعة التى لا تتنافى مع خلق أو دين هاجم « اقبال » أدعياء النبوة فى العهد الحديث ، وانهال على أنبياء السياسة وأساطينها تقريعا لاذعا ، فلم يفلت منه متجن أو جاحد.. ولم ينج من نقده القوى شارد أو وارد ممن استكانوا للاستعمار أو خدعوا بالحضارة الغربية على علاتها .. أو الذين نصبوا أنفسهم حماة عن الدين ، وحفاظا لتراثه ، وهم لا يعلمون منه غير حفظ المتون واطالة اللحى ، وحبك العمائم ..

ثم يتمادون ويفتون بأبطال الجهاد .. و .. و .. الخ .

وقد يقول قائل :

كيف تسنى لهذا الرجل الجاد « اقبال » أن يقذف بنكاته اللاذعة ونقده المر ، وعباراته المضحكة المبكية فى آن واحد ؟..

ولكن لا عجب فى ذلك أبدا .. فان العباقرة نفوسهم بعيدة الآفاق ، وقلوبهم رحيبة الميادين ، يصولون فى كل مجال ، ويجوبون فى شتى المناحى ؛ لأنهم كبار فى افهامهم ونظراتهم كبار فى مقدرتهم وارادتهم وابتكاراتهم ، يسعون الدنيا بأشكالها وألوانها !..

ومن أمثلة سخريته الخالدة أن جماعة مأجورة قامت فى «الهند» وزعمت أنها باسم الاسلام تفتى وتتكلم وانتظر الناس هناك ماذا تقول هذه الجماعة ، وما ان تكلموا ، حتى كان أمرهم عجبا ، لقد أصدروا فتواهم قائلين بأن هذا العصر عصر المدنية والحضارة ، عصر التقدم الفكرى ؛ ولهذا فان الدعوة فى هذه الأيام لا تكون الا بالقلم والمنطق والتفاهم ، وقرروا أن الجهاد باطل فى هذا العصر !.. ومن خرج عن ذلك فهو خارج عن الاسلام .. وسرعان ما شرع « اقبال » والالم يعتصر نفسه ويحرق فؤاده ؛ اذ كيف يطالبوننا بالكف عن الجهاد رغم أننا لا نملك سيفا ، ولا نحشد قوة .. بل نحن مستعمرون مستذلون ؟.. أما كان الأجدر بهم أن يسوقوا هذه الفتوى الى من حكموا الشرق رغما وقهرا ، واستعبدوا بنيه ، وحكموا القوة لا العدالة ، وركنوا الى السيف لا الى المنطق السليم ؟.. انهم سفكوا الدماء ، وأغرقوا العالم فى عنفهم وظلمهم وتسلطهم !..

قال « اقبال » :

الشيخ أفتى أنه عصــر القلم ... ما السيف فيه حاكم بين الامم
أما درى الشيخ بأن وعظــه ... فى مسجدقد صار من لغوالكلم
فما ترى السلاح كف مسلم ... بل قلبه من لذة الموت حــرم
فعلمن ترك الجهــاد طاغيــا ... من كفه يسيل فى العالم دم ..
أما ترى الغرب بدا مدججــا ... ليحفظ البــاطل فى عز عمــم
يا مفتيا على الكنيس مشفقا ... قد حار فى أحكامه أولو الفهم؟
الحــرب فى المشرق شر داهم ... والحرب فى المغرب شر لا جرم
ان يبتغ الحق فكيف حاسب المســـــلم لا الفرنج ذلك الحكم ؟

ولقد كثرت النحل وتعددت المذاهب ، وكثر أيضا أدعياء النبوة فى البنجاب فاتخذ اقبال من المسلم البنجابى مثلا المتقلب والافتراء والزعم .. وأشارة للأفق الضيق والفهم الساذج ، ولم لا ؟.. ألم يبتدعوا النبوات ويسرفوا فى الفتوى ، ويفرضوا على الامة المحطمة المستعبدة أن تعيش بغير جهاد ؟..

مجــدد فى كل حين مذهبــا ... يحــل فى مرحـــلة لــيركبا
فى حلبة التحقيق نكس واذا ... خامــره داع غــوى غلبــا
حبــالة التأويل ان تنصب له ... هوى من العش اليها معجبــا

وفى مكان آخر يكشف « قبال » الستر عن تضليل الغــرب وخداعه ، ويفضح مدنيته التى ترتكز على النفاق وتحيا على الرياء

والكذب .. وذلك عندما أنشىء مسجد « باريس » ، فتراه يتخذ من هذا العمل فرصة لازالة القناع عن نوايا الاستعمار وخفاياه ، وكأنه يقول : أيها المعجبون المقدسون لفرنسا نظرا لاقامتها هذا المسجد ، رويدكم .. فان من بنى هذا الأثر الدينى قد عاث فسادا فى الشام ، وخرب « دمشق » وخنق حرياتها وداس عواطفها لأنها تريد أن تتحرر :

يا نظـرى لا يخدعنك فنـه | للزور هـذا الحرم المغـرب
ان الذى شـيد هذا موثنـا | « دمشق » من عدوانه تخرب

ويواصل سخريته من الغرب وثوراته المجنونة وأنظمته المضطربة الحائرة وأفكاره المتناقضة .. ان « اقبالا » يقول للروس لقـد بجلتم الصليب وقدستموه من قبل ، أرقتم على جوانبه الدماء لتحموا حوضه ، وتحرسوا سدته ، ثم ها أنتم أولاء اليوم تحطمون الصليب وتشنون عليه الحرب العوان ، وتحقرونه وتزدرونه .. ترى ماذا دهاكم ؟.. لعل الوحى الجديد قد أمركم بهذه الزندقة !..

ان سير القضـاء جد عجيب | أى سر حوى ضـمير الزمان
ليس يألو الصليب كسرا قبيل | كان يرجو النجـاة بالصلبان
أمر الوحى ملحدى الروس هدوا | ما بناه القسـوس من أوثان

وفى مقطـوعة « موسولينى » يتحـدث هذا الزعيم الايطالى ويوجه خطابه الى الثائرين فى وجهه والواقفين فى طريق مطامعه من

حكومات الدول الغربية ويقول لهم : ماذا تريدون منى ؟.. ان كنت أنا « موسولينى » أسفك وأدمر ، وأوسع رقعة امبراطوريتى، فأنتم أيها الغاضبون الحاقدون قد سبقتمونى فى هذا المضمار ، أتريدون منا نحن أبناء « قيصر » وأحفاد العظام أن نسكر فى اللهو والطرب ، أما أنتم فتملكون وتحكمون !.. لا تلومونى يا ساسة الغرب فان مدنيتنا هكذا ، وما أظن مدنيتكم الا كذلك ..

كلانا بآلات التمــدن آخــذ	أتنقم أفعال السيوف حراب ؟
وقد نقمــوا منى غرام تملك	أما ثار منهم بانضعاف ضراب؟
أينفخ فى الاعواد أبناء قيصر	ويجبى اليكم عامر ويباب ؟
نهبتم خيام البدو والزرع والقرى	وكم كان منكم للعروش نهاب
قصدنا من التمدين قتلا وغارة	أأمسكم فخر ويومى عاب ؟

وفى معرض المفارقة بين الشرق والغرب وما بينهما من صلات قديمة وحديثة ، يلمح اقبال الى قضية سوريا الجريحة آنذاك فيقول الشام بالامس قد أهدت « المسيح ابن مريم » الى الغرب فما بال الغرب اليوم يبعث اليهم بهدايا من النساء والخلاعة والموبقات ؟..

أهدت الشام الى الغرب نبيا	هو عف ومــواس وصــبور
ومن الغرب الى الشام هدايا	من قمار ونســـاء وخمــور

وتراه فى مكان آخر يدحض مزاعم اليهود ويرد دعواهم على أعقابهم حينما يدعون ملكية « فلسطين » ؛ لانها كانت لهم فى قديم

الزمان فيقول ساخرا : أما كان للعرب أن يطالبوا بأسبانيا تلك التى ملكوا زمامها فى غابر الايام وملأوا ربوعها علما ونورا ؟.. ثم يعود فيقول ان المستعمر لا يفتأ يردد أنه قد خلص الشام من أيدى الاتراك المستبدين وينسى هـذا الواهم الغاشم أن الشام قد سقطت فى يد استعمار قاس لا يرحم ، وطغيان اليم لا يزول لا يقاس بطغيان الاتراك . ولقد سأله أحد زملائه فى جامعة « كمبردج » قائلا :

ــ لماذا يبعث الانبياء ومؤسسو الديانات فى آسيا دون أوربا ؟..

فأجابه اقبال :

ــ لان العالم مقسم بين الله والشيطان ، ولما كانت آسيا من نصيب الله كانت أوربا من نصيب الشيطان ..

فرد أحدهم قائلا :

ــ قد عرفنا رسل الله فأين رسل الشيطان ؟..

فأجاب « اقبال » على الفور :

ــ انهم زعماء سياسة الخداع والمكر فى أوربا !..

على هذا النسق العبقرى الغريب كان « اقبال » يسوق بعض نظراته العميقة التى تتناول مشاكل الحياة والمجتمع وشئون الدين والسياسة ، وهو فى كتاباته لا ينسى الغرض الاسمى ، الذى يؤمن به ولا يتجاهل المثل الأعلى الذى ينشده !..

ولقد كان يتناول أعقد الامور وأشق القضايا بهذا الاسلوب المعجز حتى فى الاوقات التى يجتمع فيها حشـد كبير من الناس

فيلقى بما يراه فى شجاعة لا تعرف التراجع وأدب لا يعرف الزلل ، ولباقة تستنكر كل خروج على التقاليد والاوضاع السليمة ، ومن ذلك أنه بينما اشتد الجدال بشأن مسألة الحجاب للمرأة ودارت المناقشات الحامية الوطيس بين المؤيدين والمعارضين فاذا باقبال يخرج عليهم بحكمته الساخرة الصادقة فى آن واحد ويقول لهم :

« اننى أدافع عن هذا الحجاب لانه يزيد الرغبة فى الملاح ولا يحرم منها القباح » .. ولقد قال المرحوم « على الجارم » فى احدى قصائده ما يقرب من هذا المعنى :

« والنفس أغرى بالجمال محجبا » ..

ولقد ذكرنا الحديث عن الحجاب بالمرأة وقضيتها فماذا كان رأى « اقبال » ازاء هذه المشكلة المستعصية ؟..

— ٥ —
«إقبال» والمرأة

انما المرأة لون ... فى رسوم الكائنات
لحنها ينفث نار الو ... جد فى صدر الحياة
ذلك الطين تعالى ... فوق أوج النيرات
ما « لأفلاطون » تروى ... من قضايا معضلات
وهو منها كشرار ... من ذكى الجمرات

أجل ان المرأة مخلوق بشرى له احترامه وتقديسه وليست حيوانا حقيرا كما زعم البراهمة ـ أجداد « اقبال » ـ من قبل ، هى كاللون الوسيم الجميل فى اللوحة الفنية الرائعة وهى مصدر الجمال والحب والرحمة وآية العطف والحنان والنبل ، وهى أنفاس الربيع الحلوة وأنشودة الحسن العذبة ، وهى مصدر الوجود ، وأم الفلاسفة والحكماء ، ولو أنها لم تتفلسف ، هى المدرسة الاولى للعقل الوليد ، والمعهد الاسنى للطفولة التى تحبو فى فجر نشأتها هى الديدبان اليقظ الحارس لاخطر ثغرة من ثغرات الحياة ، وأعنى بذلك النشء الجديد ، لذلك لا تقل أهمية عن الجندى الذى يحمى الدمار لانه ابنها ولا تقل خطورة عن الحاكم الجبار المتربع على كرسى الامارة لانها هدهدته فى مهده صغيرا ، ورعته

غلاما ، وأوحت اليه بالحب والسعادة شابا .. ولا ينقص من قدرها أنها وزيرة فى بيتها ، وغيرها وزير فى دواوين الحكومة ، ولا يحط من قيمتها أنها تضع التكتيكات وترسم المناهج لمعركة الحياة لابنائها فى محيط منزلها ، بينما الرجل يخوض الميادين ويبذل الدماء ، ويقذف بالنار والدمار فى ميادين أوسع .. انها امرأة بطبيعتها وخلقها واستعدادها الفطرى !..

ولن تكون رجلا أبدا الا اذا مسخت نواميس الكون ، وانتكست سنة الطبيعة ، وبرزت عضلاتها .. واكفهرت ملامحها ، واخشوشن جلدها وتصلبت نظراتها ، وغاض ينبوع الغذاء والحنان فى صدرها ، فأى حرية يطالبون بها للنساء ؟..

اذا كانت حريتها فى أن تفك عنها أغلالها المكونة من عقود اللؤلؤ فتعسا لها من حرية تجردها من حريتها وتشوه من جمالها .. واذا كانت حريتها فى أن تقول ما تشاء وتفعل ما تشاء فهذا شيء لا يمارى فيه أحد ما دامت حافظة لحدودها ، مبقية على كرامتها وعفتها ، فاهمة لرسالتها الحيوية وواجبها نحو أشبال الغد .. والسفور .. ماذا يقول عنه « اقبال » هو الآخر ؟..

اذا كان السفور رونقا وجمالا يشبع العيون النهمة ، ويرضى النفوس الجائعة ، فهو ولاشك مطية للزلل ، ووسيلة للانحراف واندفاع فى سبيل الغواية والضلال ، انه على حد تعبير « اقبال » « السفور نور فى العين لكنه ظلمة فى الصدور » .. ويقول :

ان تجز متعة العيون مداها   كان فيها الشتات فى التفكير

وان « اقبالا » لينعى على هؤلاء المتشبهين بالغرب وأولئك الذين يؤمنون بتقليده فى كل شيء فيستجيبون لدعوة السفور ، ولو أنهم نظروا الى الاحصائيات التى قاموا بها عن مدى التدهور الخلقى والانحطاط المعنوى والضياع العائلى ، لو أنهم ألقوا نظرة واحدة على هذه الاحصائيات وقارنوها بغيرها ممن لا يعترفون بالسفور ، وحكموا المنطق السليم وحده لخرجوا بالنتيجة الحتمية ، وهى أن السفور بوضعه الراهن وأخطاره الحالية لعنة أى لعنة وبلاء مقيم ، والحجاب الممقوت حقا هو ذلك الذى يغلف الذات ، ويحبسها وراء أقنعة من الضعف والاوهام ، ويحيطها بسياج من الجمود والضيق والعبث، فحجاب «الذات» شر لا يدانيه شر لانها تكون آنذاك مقبورة مضيعة ..

عشرة الافرنج نهج مفسد جهل الحمقى طباع المحصنات

ان الغرب يزعم أن السفور والتحرر والانطلاق للمرأة حصانة لها من الكبت ، وعاصم لها من الزلل ، ومنقذ لها من الحرمان الذى يدفع بالنفس الى ارتكاب الآثام والبحث عنها فى خفية من الاعين .. لكن « اقبالا » يرى ان الحصانة الحقيقية فى يدى رجل قوى قادر مؤمن واع ، فلن يجدى الحجاب ازاء رجل منحل ضعيف ، ولن ينفع العلم اذا كان الزوج مستهترا متهاونا ..

حفظ الانوثة فى يدى رجل لا العلم يحفظها ولا الحجب

ولا يعنى « اقبال » بذلك أن تستعبد المرأة وتحتقر ، ويكون الرجل لها بمثابة سجان جاف الطباع غليظ القلب ، كلا.. فالعلاقة

بينهما تقوم على أساس المحبة والاحترام المتبادل والثقة والتآزر على أن تحفظ المرأة قدسية بيتها ، وكرامة زوجها ، وعفة نفسها ، ولا تتمرد على الصفة التى هيأتها لها الطبيعة !..

وقضية تعليم المرأة كانت من المشاكل التى واجهت « اقبالا » . ان « اقبالا » لن يتناول كل علم وفن بالتفصيل ، ويبين مدى ملاءمة كل شىء لها ، فهو مؤمن بأن العلم نور وبعث وانطلاق الى الامام فى سبيل الوصول الى الذات الكاملة المؤمنة ، لكن أى علم يقصده اقبال ؟.. فاذا كان التعليم سيخرج بها عن دائرة الامومة ، ويشذ بها عن استعدادها الفطرى ورسالتها المقدسة فهو عين الجهل والحماقة ؛ لانه علم ينتزع من قلبها المشاعر الخالدة والعواطف النظيفة السماوية والاحساسات النبيلة التى تعتز بها الانسانية كتراث رائع أبدى ولانه تعليم لا يغرس فيها مبادىء الدين السامية ، وبذور الخلق القويم ، ولا يبين لها الحدود المرعية التى تقف عندها ، وعندئذ قل على الحب وعلى الحق والخير العفاء :

موت الامومة ان رامت حضارتهم
فالموت عاقبة الانسان فى الغرب

ان يجعل المرأة التعليم لا امرأة
فالعلم موت يراه صاحب القلب

ان تحرمن الفتاة الدين مدرسة
فالعلم والفن موت العشق والحب

و « اقبال » حينما يثبت هذه الحقائق التى لا جدال فيها ولا

مراء يعترف بأن المرأة قد تحملت تبعة قاسية ، وحملا ثقيلا ، لكن ما الحيلة فى ذلك ؟.. هكذا أرادت لها الطبيعة هذا الوضع وهكذا رسمت لها الفطرة ذلك المنهاج الذى اختاره الله لها ، فلا حيلة لنا فى ذلك .. وأى تمرد وثورة على الفطرة عبث لا طائل تحته :

كذلكم فى فؤادى للنساء أسى لكنها عقدة أعيت على الحيل

تلك عجالة سريعة عن رأى اقبال فى موضوع المرأة ..

— ٦ —

النزعة الإنسانية والعالمية فى شعر إقبال»

« ... ياضياء الانسانية والاخاء ، طارد بقوتك ظلام البغضاء حتى تزول عن أنفسنا الشكوك والوساوس ، عسى أن تشاهد الامم مرة أخرى وجه السعادة التى اختفت خلف مطامع المتحاربين »

هذا بعض ما قاله « اقبال » ، حينما كان يحلم بعالم تسوده المحبة والاخاء وتتحطم فيه ـ كما أسلفنا ـ حواجز الدم واللون والجنس ، وتندثر أحقاد الطبقات التى لا تقوم الا على مشاعر البغض والتناحر والاستبداد .. لقد كان يهفو الى عالم نظيف، قد هجعت فيه الحروب واستكانت المطامع الحمراء ونامت الاهواء الكافرة ..

ونظر « اقبال » بعين الحقيقة والواقع الى العالم الحديث ، فبدت له أمراضه واضحة كالشمس فكان أول ما راود ذهنه أن ينقذ السقيم مما دهاه ، لذا وضع فلسفته الخالدة ، التى أرتآها لأنها وقود الخلاص .. وروح البعث الانسانى ، وحادى القافلة العالمية الى طريق السعادة والهدى ..

وقد التزم فى فلسفته جادة الاسلام ، واتخذها سبيلا الى الحرية بعد أن درس وبحث وفكر وعاش فى خضم الحضارات المختلفة والمدنيات المتعاقبة بقلبه وفكره ، فتيقن أنه لا خلاص للعالم الا

بدواء الاسلام ــ بروحانيته وماديته ــ كما رأى « برناردشو » ، و « تولستوى » وغيرهما من فلاسفة الغرب مثل هذا الرأى !..

ولم يشغل تفكير « اقبال » قضايا العالم الاسلامى والعالم العربى فحسب بل تناول كل ما يشغل أذهان العالم من مشاكل ــ فتحدث عن عصبة الأمم ، وعن هؤلاء الذين يعبثون بقداستها وقوانينها ويسخرونها لاهوائهم حتى أنه كان من أول المتنبئين لها بالتمزق والفشل لبعد نظره السياسى ، وناقش نظريات الحكم المختلفة ، وواجه « موسولينى » برأيه فى قوة وحزم ، وبسط له تبلبل الافكار فى الامة الايطالية ، ومغزى الحكم الدكتاتورى ، وتنبأ أيضا بانهيار ايطاليا السياسى عن قريب ، وقد حدث ماتوقعه ابان الحرب العالمية الثانية ..

وناقش « اقبال » قضايا الاشتراكية ، واعتقادات الشيوعية ، وفلسفتها ، وضرب بسهم وافر فى شرح المذاهب العالمية وماهيتها ؛ شأن العالم المتبصر الخبير ..

وكثيرا ما ترى فى شعره صورة لصراع الحبشة من أجل التحرير ، وثورات الشام وهى تناوىء الاستعمار ، وتمرد الهند وهى تدافع الغزاة ، وتحذيره من اليهود وهم يحيكون الالاعيب والمؤامرات ، وخطط سماسرة السياسة ، ومستغلى الشعوب الذين يبيعون أنفسهم وضمائرهم للشيطان !..

لقد كان نصيرا لقضايا الحرية فى كل مكان فى الشرق والغرب.. وكان غيورا على الاخلاق ثائرا على ضياعها ، عند الغربيين المنحلين

المارقين أو الشرقيين الجامدين الخانعين ..

وكم كان حزن اقبال أليما ، حينما طلقت تركيا اسلامها ، وقضى « كمال أتاتورك » على الخلافة الاسـلامية وعلى صـلة تركيا بالعرب ، وقذف بنفسه فى أحضان الغرب بلا تحفظ ، ولكم نعى على « رضا بهلوى » فى ايران سياسته المتعجرفة التى تؤمن بكل ما يأتى به الغرب ، وكان « اقبال » يظن أن أمثال هذه الحركات فى « تركيا » و « ايران » وغـيرهما ليست الا خبط عشـواء ، والتباس أفكار ومركب نقص ، وايمانا مطلقا بروعة المدنية الحديثة على علاتها وكان يعتقد أن حركة البعث الحقيقية هى يوم أن يهب المسلمون من غفلتهم ، وينشروا نور مبادئهم وحضارتهم العريقة ويجوبوا ميادين العلم والكفاح فى همة ونشاط !..

و « اقبال » يرى أن حكم الشـعوب يجب أن تسيره الفئـة الفاهمة الواعية والتى لها من نضوجها وايمانها عاصم من الزلل والميل ، لهذا فهو يأخذ على النظام « الجماهيرى » انه لا يزن الرجال الوزن الحقيقى ، بل يعتمد على العدد لا القيم الشخصية ، وبمعنى آخر قوامه « الكم » لا « الكيف » واقبال بهذا يرى أنه من الاوفق والارجح أن يكون للفئات ذات الكفاءة المرموقة كلمتها ورأيها ، كما كان فى صدر الاسلام بالنسبة لاهل « الحل والعقد » لذا يقول « اقبال » :

نظام الجمـاهير حكم به ... تعد العبـاد ولا توزن

ومع ذلك « فاقبال » يحترم رأى الاغلبية ، ويسير على رأى

الجماعة لانه صاحب نظرة .. ديمقراطية سليمة ، وفى نفس الوقت صاحب وجهة نظر طيبــة ترفع من قيمة الانسان وتقــدر كفاءته ومواهبه الشخصية !..

و « اقبال » لا يفتأ يردد الشكوى من طغاة العالم الذين يذيقون الشعوب الضعيفة الويلات ، ويبكى من أجــل السلام الضــائع والقوة الغاشمة التى لا قلب لها ولا ضمير !..

كم أصاب الانسان فى هذه الا رض من اسكندر ومن جنكيز
ويقول التاريخ فى كل عصــر خطــر فــرط قــوة لعــزيز
وهى سم بغــير دين ، وبالدين دواء لــكل سم نجيــز

وهكذا ظل « اقبال » طول حياته يحارب السياسة اللادينية فى « روســيا » و « تركيــا » و « أوروبا » وفى أى مــكان لان « الميكافيللية » ليست كما يرى من الاسلام ، ويعتقــد أيضا أن السياسة اللادينية ستورد الانسان موارد التهلكة والدمار ، وتسلبه أسمى ما يعتز به من مشاعر وتقاليد وعقائد ..

ما الحــق مخف عن فــؤادى ســره
فلقــد حبــانى الله قلبــا مبصــرا
فســياسة اللادين عنــدى خســة
مات الضــمير بهــا وأبليس أفتــرى
لمــا قلى حــكم الفــرنج كنيســة
ســاســوا كشــيطان بلا قيــد جــرى

شــرهت لامــــوال العبـــاد كنيســـة
فــاذا الخميس ســـفيرها بين الـــورى

فالاستعمار أنى حط رحاله ، وحيثما ألقى بعصاه ، يأخذ أكثر مما يعطى ويهدم أكثر مما يبنى ، ويفسد أكثر مما يصلح لانه يأبى الا أن يظل محتفظا بصولجانه ، متمتعا بسلطانه حائزا على أسباب الثراء والنفوذ !..

لقد كان « اقبال » ينشد البعث لأمم الارض قاطبة ، ولا يرجوه للمسلمين فحسب ، فحال أوربا فى نظره لا ترضى ، وخطتها منحرفة وكذلك حال الشرق لا تسر ..

علــة الشرق ذلــة واقتـــداء ونظام الجمهور فى الغرب داء
مــرض القلب والبصيرة فاش ما بشرق ولا بغــرب شــفاء

فكان لا مناص من أن تتسع رقعـــة فلسفته فتشـــمل القاصى والدانى ، وتتناسى الالوان والاجناس وعناصر التفرقة ، فكلهم فى نظره يحتاج الى رعاية وعلاج وصحوة ، سواء فى ذلك الغاصب والمغصوب ، وازاء ذلك كان لا يفتأ يصرخ بنزعته الانسانيةالعامة التى لا تعرف التعصب ، فلا هو بهندى ولا عربى ولا شرقى ولا غربى ، انه انسان وكفى ، وبشر يؤمن « بذاته » وانسانيته ، فقد علمته فلسفته الذاتية أن يحلق فوق مستوى الاهواء والتفرقات :

الى عصبات لعرب ما أنا منتم ولست بهندى ولا أنا أعجمى
فقد علمتنى (الذات) تحليق نافر يمر على الدارين غير محــوم
فدينك تعداد لانفاس محجم ودينى احراق لانفاس مقـــدم

ومع احساس اقبال بهذه النزعة العالمية ، الا أنه يرى أنه هندى أعجمى بحكم المولد والنشأة فيقول : وماذا فى ذلك ؟.. اذا كنت هنديا فى أنغامى ، فانى « عدنانى » الصوت مسلم حنيفى ، واذا كانت كأسى من صنع الأعاجم ، فان خمـرتها حجـازية المنبع ، وأفكارى مستمدة من النبى العربى ، وهل الاسلام الا دين الله فى الارض ووصيته الاخيرة الى الناس عامة ، وقد انضوى تحت لوائه الطورانى والسامانى .. والشرقى والغربى :

أنا أعجمى الدن لكن خمرتى صنع الحجاز وكرمها الفينان

ان كان لى نغم الهنودولحنهم لكن هذا الصوت من عدنان

ولقد توارد فى شعر « اقبال » أسماء الاعلام من أئمة الفكر والحرب والدين والسياسة فى شتى العصـور والبقاع ، فكان شعره موسوعة لهؤلاء جميعا ، تحدث عن « محمـد » (ص) و « عيسى » و « جنـكيز » و « الاسـكندر » و « نيتشـه » و « أفلاطون » وتعرض « لموسولينى » و « ابن الرومى » و « ابن سينا » ، واحنى رأسه اعجابا « بعلى » و « عمر » و «أبى ذر» ، وتحدث عن الفلاسفة والصوفية والملحدين والمؤمنين ، كل ذلك لأنه كان انسانا يعيش بكل ذرة من كيانه ، فشعر اقبال سـجل حافل للأحداث التاريخية والسياسية العالمية ، وسفر جليل لماضى الاسلام وحاضره ..

« اقبال » و « ابو العلاء المعرى » :

يقولون أن « أبا العلاء المعرى » واقبالا اعظم شـاعرين فى الاسلام ، والحقيقة أنه لكى نوازن بين الشاعرين نجد كثيرا من العقبات التى تعترض طريقنا ، فقد سبق « ابو العلاء » « اقبالا » بما يقرب من ألف سنة الا قليلا ، فظروف العصر والبيئة تختلف اختلافا بينا ..

هذا مع أن « أبا العلاء » كان يكتب شعره بالعربية فى حين أن الاوردية والفارسية هما اللغتان اللتان كتب بهما شاعر الباكستان أشعاره ، ومما هو جدير بالذكر ان الشعر عندما يترجم من لغة لأخرى يفقد كثيرا من مزاياه البلاغية والبيانية ، ولا يحتفظ فى الغالب الا بالمعنى المجرد والفكرة الغالبة ، وهذه أيضا قد يتناولها كثير من التحريف أو قليل !..

غير أننا نستطيع أن نستخلص أن لكل منهما فلسفة خاصة ينظر بها الى الحياة وما بعد الحياة .. الى الناس ومعتقداتهم وأخلاقهم، ولقد استطاع شاعر المعرة أن يحظى بقسط وافر جدا من العلوم المختلفة والفنون التى شغلت أفكار عصره ، فلقد قرأ فلســفة الاغريق ، ونظريات الرومان وأكب على ما ترجم من الحضارات الفارسية والهندية وغيرهما ، حتى انك تقرأ فى شعره كثيرا من النظريات العلمية ، فى مجال الاستشهاد والتشبيهات كالطب والفلك والقضايا الفلسفية والرياضيات والطبيعيات فضلا عن أنه جوب

الآفاق ، وأكثر من الاسفار وتلقى العلم على يد كثير من العلماء الاجلاء فى شتى عواصم العالم الاسلامى !..

وبالاختصار استطاع « أبو العلاء » ــ رغم أنه ضرير أن يحصل على أقصى ما يستطيع الحصول عليه فى زمانه ، ولقد كان «اقبال» هو الآخر عالما رحالة ، استوعب كثيرا من فلسفة الشرق والغرب قديما وحديثا ، وألم بالقانون والشريعة الغراء ..

ولعل هذه احدى النقاط التى تشابه فيها شاعرانا العظيمان ، ولقد كان « أبو العلاء » مضرب المثل فى الاباء والأنفة فلم يتزلف لامير ولم يمدح عظيما من العظماء رياء ومداراة ، ولم يجعل شعره مطية مسخرة لنيل المطامع الدنيوية الحقيرة ، وقربة الى ذوى الجاه والسلطان بل كسر فى نفسه شهوة التطلع الى ما ليس معه ــ باستثناء العلم وحده ــ وحدة التشوق الى المظاهر الخلابة البراقة ، وما ظنك برجل أقام لنفسه سجنا وحرم عليها لقاء الناس.. والاختلاط بأسواق الدنيا ومجتمعاتها ، انه لا شك عظيم السيطرة على أهوائه ومطامعه ..

ولقد كان « اقبال » هو الآخر ــ رحمه الله عزيز النفس حر التفكير عالى الهمة نبا بشخصه بعيدا عن مواطن الشبهات والاسفاف ، وعاش طليقا متحررا الا من رسالته وعقيدته ، بل طلق المناصب الحكومية كلية ، ونصب نفسه حارسا لحرمة الحق ، مدافعا عن كيان الملة ، نافخا فى بوق البعث الأكبر ..

ولعل سمة العزوف عن مطامع الدنيا والفرار من التزلف والتكسب

بالشعر صفة مشتركة ثانية لكلا الشاعرين الكبيرين .. لكن شتان بين هذا وذاك ..

ان « المعرى » عزف عن الدنيا كرها لها وتحقيرا لشأنها ، ومقتا لأهلها اللؤماء والاوغاد الاقذار كما يقول . فهى دنيا مليئة بالغدر والخيانة . والخير « أسطورة » لاوجود لها ، والحب بدعة لاتجوز الا فى عقول المجانين والمخدوعين ، والقناعة والرضا وهم باطل ، بل هما مجرد اسم لان الناس جميعا ليسوا الا طامعين جائعين ، لا يشبع لهم نهم ، ولا يروى لهم ظمأ ؛ انهم كالوحوش الضارية .. أجل كالوحوش الضارية ، لانهم يسفكون دماء بعضهم. ويدوسون الحقوق ، ويسخرون من العدالة ، ولا منطق لديهم الا القهر والارغام ، بل ان الوحش الضارى لا يفترس الا اذا جاع فقط ، أما هؤلاء الناس فكلما ازدادوا شبعا وريا اشتعلت فيهم الرغبة الى المزيد ، واشتاقوا الى النهب والسلب والفساد ، حتى الوعاظ والعلماء فئة مارقة فى نظر « أبى العلاء » ليست تراعى الا ولا ذمة ، وتتجر بالدين ، وتتكسب بالشرائع ، وتشكلها حسب هواها كيما توائم مصلحتها ومنفعتها . فالواعظ أو الناصح فى رأيه :

يحرم فيكم الصهباء صبحا ... وشربها على عمد مساء
يقول لكم غدوت بلا كساء ... وفى لذاتها رهن الكساء
اذا فعل الفتى ما عنه ينهى ... فمن جهتين لا جهة أساء

والحكام أيضا ليسوا الا اخوان عود ، وعباد كأس ، وجلاس الغيد الحسان ، ورؤساء عصابات يختلسون أقوات الشعب

ويهزءون بحرياتهم ومقدسات حياتهم !..

هذه هى الحياة كما بدت « لأبى العــلاء » بناسها وعلمائهــا ووعاظها وحكامها ، ومثلها العليا من خير وحب وعدالة وحق ، لقد آمن « أبو العلاء » بذلك فزهد فى الدنيا ، وتركها غير آسف عليها لأنها دار هوان وشقاء وبلاء لا يريم !..

و « اقبال » يرى الدنيا طيبة مرضية ، وأنها لم تخلق عبثا ، ولم تترك سدى ، وأن الناس كلهم ليسوا ملائكة ، كما أنهم ليسوا جميعا بالشياطين والابالســة .. انهم بشر ركبت فيهم روحانيــة السماء النورانية ، ومادية الارض النارية . وهاتان القوتان ككفتى ميزان قد ترجح احداهما الاخرى فاذا ما دار الزمن دورته ، أو طرأت ظروف ومؤثرات فقد تنعكس الآية فتشيل احدى الكفتين وترجح الثانية فليس جميع الناس أوغادا أشرارا لئاما ، فالشر بجانب الخير منذ أن خلق الله النور والظلام وأنشأ « آدم »وصور « ابليس » ، وان من خلق نمرود ونيرون وغيرهمــا هو نفســه سبحانه الذى أهدى الينا محمدا (ص) و « عيسى »و « موسى » و « أبا بكر » و « ابن الخطاب » !..

ولا شك أن الشوائب والاســقام التى تعترى كيان البشرية مثلها كمثل الأمراض التى تكمن فى جسد الانسان ، وكلاهمــا يحتاج الى علاج ومواساة فاذا كانت الامراض العضوية تعالج بالبتر أو بالعقاقير او بالمباضع ، فان ادواء البشرية من شر ونفاق وظلم لها هى الاخرى وسائل للاشــفاء .. كانت نظرة اقبال الى

الدنيا اذن نظرة واقعية آملة واعية وأن الانسان نفسه يستطيع أن يخلق من الآلم سعادة ، ومن الحرمان لذة ، ومن الكفاح والنضال متعة ، ومن الأزمات والنكبات عبرة ودروسا وحافزا للوثوب وأن يصبر ويصابر ويثابر ، وأن يتوكل ولا يتواكل ، وأن ينمى ذاته ويربيها التربية الكاملة التى تصل بها الى مرتبة خلافة الله فى الارض فيحق الحق ويزهق الباطل ، ويدفع الناس دائما من حسن الى أحسن فى طريق الايمان والارادةالقوية..والا فما جدوى السخط على الدنيا وعلى الناس والتنكر لكل ما هو جميل مستحسن بينهم ، واعتبارهم مجموعة من الذئاب المجنونة ؟.. هذا ما فهمه اقبال عن الحياة والكائنات ، فبنى على أساسه فلسفته ، ولقد ارتأى « أبو العلاء » عكس ذلك فيما يبدو فكان لفلسفته طريق غير طريق « اقبال » !..

ومع هذا فقد كان لأبى العلاء الفضل الاكبر فى نقد كثير من الاوضاع الفاسدة ، والكشف عن كثير من طبائع النفوس وخباياها ، والغوص وراء مكنون الضمائر وخفاياها ، والضرب فى آفاق مليئة بالصور والمتع الذهنية ..

ولقد ترك تراثا أدبيا جبارا يعتبر ذخيرة قيمة فى أدبنا العربى خاصة والادب العالمى عامة ولعل رسالة الغفران التى كتبها حازت من الشهرة والاهتمام والتقدير شيئا كثيرا . فضلا عن انه كان رائدا من رواد الحرية الكبار فى عالم الفكر والفلسفة !..

ورغم هذا فقد كان يائسا من الدنيا ومن فيها لعنادهم وصلفهم ،

أما « اقبال » فقد أسهبنا آنفا فى وصف شعره الذى يؤمن بالتحرر ويعيش على الامل ويجوب فى معالم النفس البشرية وطواياها كما كان يفعل أبو العلاء ، ولا ييأس أو يهرب أو ينزوى فى محبس من صنعه بل ينقذف فى معمعان المعركة الناشبة ــ معركة الحيــاة التى يؤمن بأنها قنطــرة الى عالم زاهر جميــل ، عالم الخلود الأبدى ..

وكان فيلسوفنا « ابو العــلاء » شاكا مترددا ، متمــردا على القضاء والقدر ، ويعتقد أنه مظلوم مغبون ، وطريد الاقدار ، ولطالما تساءل ، كيف الام واعاقب وقد أتوا بى الى الدنيا دون أن استشار ، ودرجت فيها رغم أنفى ، وأنا عاجز الارادة ضعيف القدرة ، يكبلنى القضاء المكتوب ، وتسيرنى قوى خفية بعضها كامن فى أعماق روحى ، ومناحى جسدى .. وبعضها الآخر لا أدرى له كنها ، ولا أعلم له حقيقة ثم ماذا كنت قبل أن أولد.. ولماذا خلقت ... وما مصيرى بعد الموت .. أهو نومة أبدية لا صحوة فيها .. أم تراها حياة أخرى جميلة خالية من المتاعب والاهوال التى تجرعت كؤوسها فى دنياى ؟.. وهل هناك بعث أو نشور أم هو الفنــاء الذى لا حياة بعــده ؟.. انى حائر .. تعيس .. شــقى . يا الهى !.. انى ضحية .. ضحية الناس والزمان والاقدار !..

وهكذا كان « أبو العلاء » حائرا شاكا لا يدرى له مصيرا ، ومع هذا فقد كانت تطوف به أوقات من الهدوء ، ولحظات من السكينة والتجلى والايمان ، فيؤوب الى الله يمكب فى حضرته

دموع التوبة والندم ، ويبتهل اليه فى حرارة وشوق وروحانية مشرقة ، لكنه كان يعود مرة أخرى الى بلبلته وتشككه ،ويصطلى بنار القلق والحيرة من جديد ، فيبعث الشكوى والأنين فى شعر لافح مر ، ويصب على نفسه ألوان اللوم والتقريع ويعود الى محبسه الاختيارى بجفون مخضلة بالدمع ، وقلب مشرب بالأسى ، ونفس ملتاعة بالاحزان غاصة بالاوهام والآلام . لهذا كان ممن أحسنوا التعبير عن قلقهم النفسى الموجع ولوعة أفئدتهم المكلومة الطعينة ..

واقبال يؤكد أن وراء حياتنا الفانية عالما أخر خالدا ، فيه مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ولا يعقل أن تكون الحياة عبثا وسدى ، بل انها وسيلة الى عالم أفضل ، وقنطرة الى الآخرة حيث السعادة التى لا تعتريها شقوة والراحة التى لا ينغصها نصب ، والنعيم الذى لا يشوبه ألم ، ولذا فهناك بعث ونشور يوم ينفخ فى الصور ، وهناك جنة ونار ، وهناك أيضا عقاب وثواب وحساب عادل . أما مسألة الجبر والاختيار ، والقضاء والقدر فقد أوضحها « اقبال » فى شعره ، ايضاح الرجل المؤمن ، ذى الضمير المستريح ، والقلب المطمئن ، والروح الهادئة المستقرة !..

تلك لمحة قصيرة عن « اقبال » و « أبى العلاء المعرى » ولا شك أن الالمام بأوجه الاختلاف والاتفاق تفصيلا تحتاج لفرصة أخرى !..
وكل ما نستطيع أن نقوله فى نهاية هذه اللمحة الخاطفة اننا

يجب أن ننصف « أبا العلاء » كمفكر حر أنار الطريق أمام رواد العلم والبحث والثقافة ، وننصفه كانسان تألم لآلام البشر وضحايا الحياة .. فبلغ درجة لا يستهان بها فى روعة تعبيره ، وننصفه كآدمى عبقرى استطاع أن ينشر ما يعتمل فى نفسه من انفعالات كثيرة ، وننصفه كشاعر من كبار شعراء العربية بأسلوبه الجـزل القوى وأخيلته السامية وتعليلاته الدقيقة ، وننصفه كناقد بارع لاوضاع المجتمع ونواقصه وعيوبه ، وننصفه كعالم فذ ، وفيلسوف نادر المثال ، وناظم لا يشق له غبار !..

أما « اقبال » فانصافه شيء من نافلة القول ، فله من كفاحه القوى ، وعقيدته السليمة وبيانه الفياض « وذاته » القوية المؤمنة ما لا يدع مجالا لقول قائل .

القلنـــــدرى :

فى الهند كثير من العجائب ، هناك أقوام يتلذذون بالسير فوق المسامير والاشواك أو النوم فوقها وهم عراة الأجساد ، وفيهـا أقوام يقضون الايام العديدة دون أن ينالوا شيئا من الغذاء !.. وفيها من يداعبون الثعابين القاتلة السامة ويراقصونها على أنغام الموسيقى ودقات الطبول ، وهنـاك من ينفردون بتقـديم ألوان مدهشة من السحر وسط الأبخرة المتصاعدة وألحان الناى التى تأخذ بمجامع القلوب ، ثم هناك من كانوا يزهدون فى الدنيا قاطبة، فينطلقون وهم مجردون من المال والمتاع بلا هدف ولا غاية امعانا فى ايلام أنفسهم وتنفيسا عن طاقات روحية هائلة مذخورة ، فالهند

كما قلنا بلد الروحانيات المتزايدة والتصوف القديم منذ فجر التاريخ ، وبلد المذاهب الكثيرة والنحل المتباينة فأصبحت دياناتها تعد بالمئات ولغاتها كذلك ..

وهناك فى « الهند » مذهب يسمى مذهب « القلندرية » نسبة الى مؤسس هذا المذهب الذى اعتبره صاحبه لونا من ألوان التصوف ، وكان السالكون لهذه الطريقة جوابين فى الآفاق ، ضاربين فى شتى أنحاء الارض ، ولا يرتبطون بوطن عاشوا تحت سمائه . الارض كلها مسرح ومراح لهم ، يناموين حيث يبغتهم النوم ، يأكلون اينما تيسر لهم الطعام ، وينطلقون اذا أحسوا برغبة فى الانطلاق :

الحب والزهد زادى وكل أرض بلادى[1]
ومن ثراها وسادى ولا أدين وربى
لحاضر أو لبادى

ويمضى الواحد منهم هكذا حليق الرأس واللحية تستره الاسمال وينتعل الاوحال . وقد كتب عن القلندرية الامام « السهروردى » فى كتابه « عوارف المعارف » فى الباب التاسع عند ذكر من انتمى الى الصوفية وليس منهم فقال :

« ... فمن أولئك قوم يسمون أنفسهم « قلندرية » تارة ، و « ملامتية » تارة أخرى ، ولقد ذكرنا حال الملامتى ، وأنه حال

---

(١) من شعر المؤلف

شريف ومقام عزيز ، وتمسك بالسنن والآثار وتحقق بالاخلاص والصدق وليس مما يزعم المفتونون بشيء ، فأما القلندرية هى اشارة الى أقوام ملكهم سكر طيبة قلوبهم ، حتى خربوا العادات وطرحوا التقييد بآداب المجالسات والمخالطات ، وساحوا فى ميادين طيبة قلوبهم ، فقلت أعمالهم من الصوم والصلاة الا الفرائض ، ولم يبالوا بتناول شيء من لذات الدنيا من كل ما كان مباحا برخصة الشرع ، وربما اقتصروا على رعاية الرخصة ، ولم يطلبوا حقائق العزيمة ومع ذلك فهم متمسكون بترك الادخار وترك الجمع والاستكثار ، ولا يترسمون بمراسم المتقشفين والمتزهدين والمتعبدين ، وقنعوا بطيبة قلوبهم مع الله تعالى ، واقتصروا على ذلك ، وليس عندهم تطلع الى طلب مزيد سوى ما هم عليه من طيبة القلوب .. الى أن يقول :

« والقلندرى لا يتقيد بهيئة ولا يبالى بما يعرف من حاله وبما لا يعرف ، ولا ينعطف الا على طيبة القلوب وهو رأس ماله » ..

تلك كلمة قصيرة عن القلندرية من الوجهة التاريخية والفكرية لكن .. كيف نظر « اقبال » الى « القلندرية » ؟..

ولماذا سمى نفسه فى كثير من مقطوعاته « بالقلندرى » ؟..

هل كان «اقبال» يؤمن بهذا المذهب ؟.. واذا كان كذلك فلماذا لم ينتزع شعر رأسه ويرتد الاسمال وينطلق كالمسافر الضليل لا يعلم له وجهة ، ولا يعبأ بأهل ولا وطن !..

والحقيقة أن « اقبالا » كان أكبر من أن يقيد نفسه بمذهب

ضيق الحدود ، أو فكرة قصيرة النظر غير واضحة السمات ،فكيف يترك « اقبال » الدنيا وما عليها ، وينفلت منها الى الزهدالكامل او التحرر الذى لا يحده حد ؟ وكيف يترك حشــود الجياع ، وجموع الضائعين المستعبدين فى الهند وملايين الجهلاء والمرضى والبلهاء ؟.. ليكن « اقبال » « قلندرا » .. لكن أى « قلندر » يكون ؟..

لا يجد « القلندرى » راحــة وان ثوى بقبره تحت الثرى

اذن « القلندرى » الجديد الذى صوره « اقبال » وأضفى عليه من جميل الصفات ما جعله جديرا بالحذوة والاقتداء ، مثل هذا « القلندرى » هو المثل الأعلى لفلسفة « اقبال » ، هو المؤمن الحق ، المؤمن المكافح الخالد ، ذو النفس القوية الخالدة رغم الزمان والمكان والبقاء والفناء ، المؤمن الذى لا يجد راحة فى دنياه ، ولا يركن الى الهدوء والسكون فى أخراه لأنه حلقةمتصلة من الدأب والنضال والسمو والترقى الى أوج الكمال .

وليس « القلندرى » هو ذلك الذى يرتدى الاسمال ، ويحطم التقاليد ويسخر من دنياه ولا يعبأ بدار أو وطن هائما علىوجهه.. ان « القلندرى » الجديد انسان ثاقب الفكر ، نابض العزيمة ، لا يستعبده مال ، ولا يستذله منصب أو جاه ، ولا يسخره طاغ بوعد أو وعيد .

والقلندرى فرد « بذاته » المكتملة ، كل بكفاحه من أجل الحق المجرد ، والاخذ بيد الاحياء الى دنيا اسمى وأروع ، انه يملك

الدنيا ويوجهها وجهة الخير لانه من حديد وعزيمته وصلابته وروحه من حديد ، لا لانه يملك فى يده حديدا فحسب ، ولكن لانه هو نفسه حديد ، فلا فائدة فى حديد تحمله يد هشة ، ويقذفه قلب مفزع وتحركه روح واهنـــة ، أو تطرقــه ذات مبعثــرة . قال « موسولينى » « لاقبال » :

« ان من ملك الحديد ، فقد ملك كل شىء » فرد «اقبال» عليه قائلا : « ان من كان هو حديدا فهو كل شىء » ..

وبهذا العزم سيطر « القلندرى » الجديد الذى بعثه اقبال من مرقده وألبسه هذه الصفات الجديدة .. سيطر على الزمان، وخاض عبابه الصاخب . واستطاع « بتكبيره » وايمانه أن يمحق سحر الزمان فلا يستعبده ، ففى قصيدته « همة القلندر » يقول :

يقــول للزمــان ذلك الفتى   أمض الى حيث يســير المؤمن
مالك فى معتــركى من طاقة   حــذار من قلنــدر لا يذعن
اذا طغى اليم فهيــا أقــدمن   ما حاجتى ملاحــه والســفن

ويقول فى مكان آخر ــ وهو يعنى نفسه :

ليس يخفى على القلندر فكر   ساور النشء ظاهرا وخفيــا
أنا عنــدى بكل حالك خبر   فبهــذا الطريق سرت مليــا
ليس هم الغواص أصداف بحر   يبتغى الغائصون درا بهيــا

فشتان بين « قلندرى » و « قلندرى » ..

فان أولهما قد اتسم قلبه بالطيبة ، ونذر نفسه لله ، فجرى وهام على وجهه بلا هدف محدود ولا خطة مرسومة ، ولم يلتفت

للناس ، والثانى باع نفسه لله خالصة ، فاتخـذ السبيل الحق ، وهتف بالناس أن سيروا ورائى الى الله ، وأوضح وأبان ، وتركز ودقق ، ولم يدع جهده مشتتا موزعا هباء منثورا .

فكان هذا « القلندرى » الجديد هو قائد البعث ، وشعار الذات الكاملة ، وهو الذى أذاع سر الوثبة المباركة ، وحركة الزحف والتحرر .

قال للرومى فى الخلد سـنائى	لا يزال الشرق بالتقليد يؤسر[1]
قال منصور : ولكن قد سمعنا	أن سر الذات أفشاه قلنـدر

ومن ألصق الصفات « بالقلندرى » صفة هامة هى :

الفقـــــر :

ولقد أكثر « اقبال » من ذكر كلمة الفقر ، وعدها صفة من أعظم الصفات التى يجب أن يتحلى بها الانسان المؤمن الفاضل ، ولم يقصد « اقبال » بالفقر ذلك المعنى الدارج المعروف وهو عدم المال أو قلته . ويقول الدكتور عبد الوهاب عزام : « .. والذى أدركته من كلام الشاعر أن الفقر الذى يعنيه هو خلاص النفس من قيد التملك أو الطمع ، ومضيها عاملة مقدمة لا يطغيها وجدان ولا يذلها حرمان ، وربما يملك الفقير قناطير من الذهب ، وربما يكون ملكا مسلطا لا يعجز سلطانه مال أو متاع . وليس هذا المعنى بعيدا عما فسر به بعض الصوفية الفقر ، ففى رسالة القشيرى :

---

(1) الرومى وسنائى ومنصور من كبار الصوفية !..

سئل يحيى بن معاذ عن الفقر فقال : حقيقته ألا يستغنى الا بالله وقال « الثعلبى » : أوفى علامات الفقر أن لو كانت الدنيا بأسرها لاحد فأنفقها فى يوم ثم خطر له أن لو أمسك منها قوت يومه ما صدق فى فقره » .. فترى أن الفقر فى هذا الكلام ليس عدم الملك وفوات المال ، ولكن ألا يرتبط الانسان بما أدرك أو بما فات ، أعنى ألا تكون الدنيا فى قلبه وان كانت فى يده » أ . هـ

وفى قصيدة فقر الصالحين يقول اقبال ما معناه :

« يا عبيد المال وعشاق الطين والمتاع ، ألا أخبركم عن الفقر الرفيع العظيم ؟.. هو ان تستبين طريق العارفين ، وتروى فؤادك الظامىء من ينبوع الايمان واليقين .. مثل هذا الفقر عزيز النزعة، رفيع الجناب،غنى عن الدنيا وما فيها ، أو قل هى طوع يمينه،حتى لكأن الجوزاء بسموها ورحابتها لا تحتاج منه الا الى خطـوة يسيرة كى يطأها .. واذا انطلقت أصداء صوته فى العالمين ، أرعشت الكائنات وهزت البقاع ، وما هذه العزمة الفتية ، والقوة الجبارة، الا لأنه يؤمن بأن هذا الكون ليس له اله الا الله !..

ان الشوق يملأ كل ذرة فى كيانه ، والرضى يسرى بين حناياه ، وتذوق الخير والحب والجمال يغمر روحه ، وهو دائما يسلم أمره لله ، ويرضى بما قسم له قناعة وزهدا لا عن عجز وضعف وكسل !.. فياله من فقر رائع حقا ، ملأ الارض صفاء وسناء وأشاع فيها بهجة وسعادة ، ولا عجب فى ذلك ، لان هذا الفقر ميراث النبى الاعظم

محمد (ص) .. ان له فى الظلمات الحالكة نورا مسرجا الى المجد فاذا غلبت الدجنات على البسيطة انجابت عن عينيه الغشاوات ، وبدا الظلام ضياء غامرا !..

وللفقير عزيمة تصنع المستحيل ، وتركب الصعب ، وتخلق من اليأس أملا ، ومن الفشل نجاحا ومن « الزجاج جواهر ثمينة » ، وربما استطاع بايمانه أن يغير ناموس الفلك ، وان يكون سناء الملائكة والتماعهم مستمدا منه !.. ياله فى مظهره من مسكين مرقع الثياب ، قانع بالقليل ومع ذلك فقلبه كبير يسع الدنيا بأسرها ، ان فقرنا من نوع عجيب ، فهو صامت أو نادر الكلام ، خال من البهرج والدعاية والمظاهر ، لكنه بهذا الصمت الحكيم يربى الاجيال ، ويشيد الامم ، ويدفع بموكب الحياة قدما الى الامام». ويستطرد « اقبال » قائلا : ان صفة الفقر هى صفة المسلم الحق المتواضع ، ورغم أنه ساس دولته من فوق حصير ، فقد خشيه أولو التيجان والصولجانات

فقرنا ليس برقص أو غناء ليس سكر النفس فى موت الرجاء
فقرنا معناه تيسير الجهود فقرنا معناه تسخير الوجود
فقرنا العادى سراج لو ظهر يخجل الشمس ويزرى بالقمر
انه ايمان بدر وحنين انه زلزال تكبير الحسين

صاح دعنى اكتم الهم الدفين ان كأسى ليس يروى العابثين
فكنوز الدين قد طارت شعاعا وتراث المال قد أمسى ضياعا

أيها الشـادى بقـرآن كريم وهو فى ركن من البيت مقيم
قم وأبلغ نـوره للعـالمين قم وأسمعه البرايا أجمعـين
ان تكن فى مثل نيران الخليل أسمع النمرود توحيد الخليل

فالفقر ليس رضا بالدون ولا هو خنوع للمذلة ، ودردشة بلهاء، وترك الحبل على الغارب للحاكمين المستبدين ، واحتجاج بالقضاء والقدر على ما أصاب أممنا من ضعة وهوان ، وصبر على الغاصبين، وانما هو عزيمة وايمان وكفاح واصلاح ، هو الغنى بعينه ان لم يكن أسمى وأعز !.. « أيها المؤمن فلتتقدم !.. ليس هذا منتهى السـفر » ..

وفى ابريل عام ١٩١٨ م فاضت روح « اقبال » الى بارئها وهو أشد ما يكون فرحا وطربا للموت .

بعض المراجع التى رجعنا اليها فى هذا البحث

١ ـ ديوان « ضرب الكليم » ... ترجمة « الدكتور عبد الوهاب عزام »

٢ ـ مقالات الاستاذ « أبو النصر الهندى » فى مجلة الرسالة عن « اقبال » عام ١٩٣٥ م

٣ ـ ديوان « رسالة الشرق » ترجمة الدكتور « عبد الوهاب عزام »

٤ ـ فلسفة « اقبال » والثقافة الاسلامية فى « الباكستان » ـ تاليف الاستاذ « الصاوى شعلان » والاستاذ « الاعظمى »

٥ ـ مع « أبى العلاء » فى سجنه ـ لـ « طه حسين »

٦ ـ محمد « اقبال » « سيرته وفلسفته وشعره » الدكتور عبد الوهاب عزام

٧ ـ ديوان الاسرار والرموز !..

٨ ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ـ لـ « ابو الحسن الندوى »

٩ ـ تاريخ الدعوة الاسلامية فى الهند ـ لـ « مسعود الندوى »

كتب للمؤلف

١ ــ الطريق الطويل :

القصة الفائزة بجائزة وزارة التربية والتعليم عام ١٩٥٧
نشرتها وزارة الثقافة والارشاد (مكتبة مصر)

٢ ــ اقبال الشاعر الثائر :

الكتاب الفائز بجائزة وزارة التربية عام ١٩٥٧
(الشركة العربية)

٣ ــ فى الظلام :

القصة الفائزة بجائزة وزارة التربية عام ١٩٥٨
(الشركة العربية)

٤ ــ شوقى فى موكب البعث :

الكتاب الفائز بجائزة وزارة التربية عام ١٩٥٨
(الشركة العربية)

٥ ــ المجتمع المريض

الكتاب الفائز بجائزة وزارة التربية عام ١٩٥٨
(مكتبة وهبه)

٦ ــ على أسوار دمشق :

مسرحية تاريخية من خمسة فصول
(دار العروبة)

٧ ـ موعدنا غدا .. و«قصص اخرى»

وبها القصة الفائزة بالجائزة الاولى فى مسـابقة نادى القصة وبالميدالية الذهبية المهداة من الدكتور طه حسين

(نشـــرتها دار القلم)

٨ ـ عذراء القرية :

قصــــــة طـــــويلة

٩ ـ ارض الاشواق :

قصــــــة طـــــويلة

١٠ ـ أغانى الغرباء :

ديوان شـــــعر

١١ ـ نحـو العلا :

ديوان شـــعر (نفد)

١٢ ـ ليل الخطايا :

قصــــــة طـــــويلة



يطلب من
الشركة العربية للطباعة والنشر والتوزيع

السعر ٢٥ قرشاً